

سُورَةُ يُوسُفَ

مَكِّيَّةٌ، [إِلَّا الْآيَاتِ ٤٠ وَ ٩٤ وَ ٩٥ وَ ٩٦ فَمَدَنِيَّةٌ]

وَهِيَ مِائَةٌ وَتِسْعُ آيَاتٍ [نَزَلَتْ بَعْدَ الْإِسْرَاءِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾

﴿آر﴾: تعديد للحروف على طريق التحدي، و﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾: إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة، و﴿الْحَكِيمِ﴾: ذو الحكمة؛ لاشتماله عليها، ونطقه بها، أو وصف بصفة محدثة؛ قال الأعشى [من الكامل]:
وَعَرِيبَةٌ تَأْتِي الْمُلُوكَ حَكِيمَةً قَدْ قُلْتَهَا لِيُقَالَ: مَنْ ذَا قَالَهَا؟^(١)
الهمزة لإنكار التعجب والتعجب منه، و﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾: اسم كان، وعجبا؛ خبرها، وقرأ ابن مسعود: عجب، فجعله اسماً وهو نكرة و﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾: خبراً وهو معرفة؛ كقوله [من الوافر]:

يَكُونُ مِزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ^(٢)

(١) للأعشى. أي: ورب قصيدة غريبة حكيمة ناطقة بالحكمة دالة عليها، أو حكيم قائلها، فهو من الإسناد للسبب، لأنها سبب في وصف قائلها بالحكمة. قد قلتها ليتعجب الناس ويقولوا من هذا الشاعر البليغ الذي قائلها. وذا: اسم إشارة في لغة الحجاز، واسم موصول في لغة طيء، وهي أقرب هنا، فجملة «قائلها» صلة الموصول.

ينظر: ديوانه (٧)، القرطبي (٣٠٥/٨)، الهمع (٨٤/١)، الدرر (٥٩/١).

(٢) كان سبيته من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء على أنيابها أو طعم غرض من التفاح هصره اجتناء لحسان بن ثابت قبل تحريم الخمر. والسلافة: أول ما يسيل من ماء العنب. ويروى «سبيته» أي مشترة: يقال: سبأ الخمر كنصر، إذا اشتراها. ويروى خبيثة: أي مصونة في الخاية. وبيت رأس: =

والأجود أن تكون «كان»: تامة، وأن أوحينا بدلاً من عجب.

فإن قلت: فما معنى اللام في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾؟ وما هو الفرق بينه وبين قولك: أكان عند الناس عجباً؟

قلت: معناه: أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها، ونصبوه علماً لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم، وليس في عند الناس هذا المعنى، والذي تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر، وأن يكون رجلاً من أفناء رجالهم^(١)، دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون/ ١٣١٠: العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وأن يذكر لهم البعث وينذر بالنار، ويبشر بالجنة، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب؛ لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشر مثلهم، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمْسُوكَ مُؤْتَمِنِينَ لَأَزَلْنَا عَلَيْهَم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥]، وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب - أيضاً - لأن الله تعالى إنما يختار من استحق الاختيار؛ لجمعه أسباب الاستقلال بما اختير له من النبوة، والغنى والتقدم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء، ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبا: ٣٧]، والبعث للجزاء على الخير والشر هو الحكمة العظمى، فكيف يكون عجباً؟ إنما العجب العجيب، والمنكر في العقول: تعطيل الجزاء، ﴿أَن أُنذِرَ النَّاسَ﴾: أن: هي المفسرة؛ لأن الإيحاء فيه معنى القول، ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، وأصله: أنه أنذر الناس، على معنى: أن الشأن قولنا أنذر الناس، و﴿أَن لَّهُمَّ﴾: الباء معه محذوف، ﴿قَدَّمَ صِدْقِي عِنْدَ

= قرية بالشام. وقيل المراد بالراس الرئيس، وشرابها أطيب من غيره، و«مزاجها» خبر يكون مع أنه معرفة. و«عسل» اسمها مع أنه نكرة، وكان القياس العكس فقلب للضرورة. وجوزة ابن مالك في معمول «كان» و«إن» فلا قلب. وقال الفارسي: إن انتصاب مزاجها على الظرفية المجازية. وروي برفع الكلمات الثلاث، على أن اسم كان ضمير الشأن. وقول ابن السيد: بزيادة «كان» هنا: غير مرض؛ لأن زيادة المضارع لا ترتكب إلا عند الضرورة، ويروى بنصب العسل فقط، فهو خير ورفع ماء. بتقدير: وخالطها ماء. وجملة الكون صفة سلافة. وعلى أنيابها: خبر «كان» المشددة. والمزاج: ما يمزج به غيره. والمراد بالأنياب: الثغر كله. والغض: الطري الرطب. والهصر: عطف الغصن وإمالته إليك من غير إيانة لثجني ثمره. والتهصير: مبالغة فيه. وروي «الجناء» بدل «الاجتناء». وهو بالقصر مصدر. لكن مد هنا ضرورة. وإسناد التهصير إلى ذلك مجاز عقلي، من باب الإسناد للسبب. وإيقاعه على التفاح على تقدير مضاف، أي: هصر غصنه. ويروى: أو طعم غصن، فلا تجوز في تهصيره. لكن إضافة طعم إليه على تقدير مضاف. أي طعم ثمر غصن. شبه ريقها بالخمير الجيدة وطعمه بطعم تفاح ميل غصنه الجاني ليجتنيه، إشارة إلى أنه مجني الآن لم يمض عليه شيء من الزمان، وتلويحاً لتشبيهه محبوبته بالأغصان في الرقة واللين والميلان.

ينظر: ديوانه (٥٩)، والكتاب (٢٣/١)، والمعني (٥٠٥)، والهمع (١١٩/١)، والدرر (٨٨/١).

(١) قوله: «من أفناء رجالهم» في الصحاح: يقال هو من أفناء الناس، إذا لم يعلم ممن هو (ع).

رَبِّهِمْ ﴿١﴾ أي: سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة^(١).

فإن قلت: لم سميت السابقة قدماً؟

قلت: لما كان السعي والسبق بالقدم، سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً، كما سميت النعمة يداً؛ لأنها تعطى باليد، وباعاً؛ لأن صاحبها يبيع بها، فقيل: لفلان قدم في الخير، وإضافته إلى صدق؛ دلالة على زيادة فضل، وأنه من السوابق العظيمة، وقيل: مقام صدق، ﴿إِنَّ هَذَا﴾: إن هذا الكتاب وما جاء به محمد ﴿لَسِحْرٌ﴾: ومن قرأ: «الساحر»؛ فهذا إشارة إلى رسول الله - ﷺ - وهو دليل عجزهم واعترافهم به، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً، وفي قراءة أبي: «ما هذا إلا سحر».

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ. ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿يُدِيرُ﴾: يقضي، ويقدر على حسب مقتضى الحكمة، ويفعل ما يفعل المتحري للصوص الناظر في أدبار الأمور وعواقبها؛ لئلا يلقاه ما يكره آخرأ، و﴿الْأَمْرُ﴾: أمر الخلق كله وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش.

فإن قلت: ما موقع هذه الجملة؟

قلت: قد دل بالجملة قبلها على عظمة شأنه، وملكه بخلق السموات والأرض، مع بسطتها واتساعها في وقت سير، وبالاستواء على العرش، وأتبعها هذه الجملة؛ لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره؛ وكذلك قوله: ﴿مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾: دليل على العزة والكبرياء؛ كقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي الرُّوحَ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [النبا: ١٨]، و﴿ذَلِكُمْ﴾: إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة، أي: ذلك العظيم^(٢) الموصوف بما وصف به هو ربكم، وهو الذي يستحق منكم العبادة، ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾: وحده/ ٣١٠ ب، ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان، فضلاً عن جماد لا يضر ولا ينفع، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: فإن أدنى التفكير والنظر ينبهكم على الخطأ فيما

(١) قال محمود: «أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة... إلخ» قال أحمد: ولم يرد في سابقة السوء تسميتها قدماً، إما لأن المجاز لا يطرد، وإما أن يكون مطرداً ولكن غلب العرف على قصرها كما يغلب في الحقيقة، والله أعلم.

(٢) قوله: «ذلك العظيم» لعله ذلكم (ع).

أنتم عليه، ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: لا ترجعون في العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقاءه، ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾: مصدر مؤكد لقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، و﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد؛ لقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ [الروم: ٦]، ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: استئناف، معناه: التعليل لوجوب المرجع إليه، وهو: أن الغرض ومقتضى الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم، وقرئ: «أنه يبدؤ الخلق»، بمعنى: لأنه، أو هو منصوب بالفعل الذي نصب وعد الله، أي: وعد الله وعداً بدأ الخلق ثم إعادته، والمعنى: إعادة الخلق بعد بدئه، وقرئ: وعد الله، على لفظ الفعل، «ويبدئ»، من أبدأ، ويجوز أن يكون مرفوعاً بما نصب حقاً، أي: حق حقاً بدأ الخلق؛ كقوله [من الطويل]:

أَحَقًّا عِبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ جَائِيًا وَلَا ذَاهِبًا إِلَّا عَلَيَّ رَقِيبٌ^(١)
 وقرئ: حق أنه يبدؤ الخلق؛ كقولك: حق أن زيدا منطلق، ﴿يَأْتِسِطُ﴾: بالعدل، وهو متعلق بيجزي، والمعنى: ليجزيهم بقسطه ويوفيههم أجورهم، أو بقسطهم وبما أقسطوا وعدلوا، ولم يظلموا حين آمنوا وعملوا صالحاً؛ لأن الشرك ظلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَكَ لَطَلُّرٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] والعصاة: ظلام أنفسهم، وهذا أوجه؛ لمقابلة قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

الباء في ﴿ضِيَاءً﴾: منقلبة عن واو ضوء لكسرة ما قبلها، وقرئ: «ضياء» بهمزتين بينهما ألف على القلب، بتقديم اللام على العين، كما قيل في عاق: «عقا»، والضياء أقوى من النور، ﴿وَقَدَرَهُ﴾: وقدر القمر، والمعنى: وقدر مسيره، ﴿مَنَازِلَ﴾: أو قدره ذا منازل؛ كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]. ﴿وَالْحِسَابَ﴾: وحساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي، ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى المذكور، أي: ما خلقه إلا ملتبساً بالحق

(١) أحقا عباد الله أن لست جائياً ولا ذاهباً إلا علي رقيب
 ولا زائراً فرداً ولا في جماعة من الناس إلا قيل: أنت مريب

لعبد الله بن المدينة الخثعمي. وقيل: لقيس بن الملوح. قال المرزوقي: أحقا انتصب عند سيويه على الظرفية، كأنه قال: أفني الحق ذلك، لأنهم كثيرا ما يقولون: أفني الحق كذا. وعند المبرد على المفعولية المطلقة، أي أحق ذلك حقا، لأنه مصدر، وعباد الله: منادى. وروي: أن لست وارداً ولا صادراً. والمعنى واحد. والرقيب: المانع من لقاء الحبيب. ويجوز أن يراد به ما في قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَبِيدٌ﴾ أي مناظر حاضر أو قوله تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّأَعْتَابًا حَافِظٌ﴾. ينظر: ديوانه ص (١٠٣)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص (١٣٦٤)، وشرح الأشموني (٢/٣٠٢)، والبحر (٥/١٢٤)، والطبري (١٥/٢١).

الذي هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثاً، وقرىء: «يفصل»، بالياء.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَسْتَفْتُونَ﴾

خصّ المتقين؛ لأنهم يحذرون العاقبة، فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا
غَافِلُونَ﴾ (٧) أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)

﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾: لا يتوقعونه أصلاً، ولا يخطرונה ببالهم لغفلتهم المستولية عليهم، المذهلة باللذات وحب العاجل عن التفطن للحقائق، أو لا يأملون حسن لقائنا كما يأمله السعداء، أو لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف، ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: من الآخرة، وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي؛ كقوله تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨]. ﴿وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾: وسكنوا فيها سكون من لا يزجج عنها، فبنوا شديداً، وأملوا بعيداً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي
جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٩) دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾: يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة^(١) على سلوك السبيل المؤذي إلى / ٣١١ الثواب؛ ولذلك جعل: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾: بياناً له وتفسيراً؛ لأن التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها، ويجوز أن يريد يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢]، ومنه الحديث: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ صُورَ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ، فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا عَمَلُكَ، فَيَكُونُ لَهُ نُوراً وَقَائِداً إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْكَافِرُ إِذَا خَرَجَ مِنْ

(١) قال محمود: «معناه يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة... إلخ» قال أحمد: هو يقرر بذلك زعمه في أن شرط دخول الجنة العمل الصالح، وأن من لم يعمل مخلد في النار كالكافر، وأنه له ذلك وقد جعل الله سبب الهداية إلى الجنة مطلق الإيمان، فقال ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ وقول الزمخشري «أن المراد إضافة العمل» لا ينتهض عن حيز الدعوى، فإن الله لم يعلل بغير الإيمان وإن جرى لغيره ذكر أو لا فلا يلزم إجراؤه ثانياً ولا محوج إليه. وشبهته أن الإيمان المجهول سبب مضاف إلى ضمير الصالحين، فيلزم أخذ الصلاح قيداً في التسبب، وهو ممنوع؛ فإن الضمير إنما يعود على الذوات لا باعتبار الصفات وقد تقدمت لهذه المباحثة أمثال وأشكال، والله الموفق.

قَبْرِهِ صُورَ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةٍ سَيِّئَةٍ فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا عَمَلُكَ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ حَتَّى يَدْخُلَهُ النَّارَ» (٧٤٠).

فإن قلت: فلقد دلت هذه الآية على أن الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية، والتوفيق، والنور ويوم القيامة، هو إيمان مقيد، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح، والإيمان الذي لم يقرن بالعمل الصالح، فصاحبه لا توفيق له ولا نور، قلت: الأمر كذلك؛ ألا ترى كيف أوقع الصلة مجموعاً فيها بين الإيمان والعمل، كأنه قال: إن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ثم قال: بإيمانهم، أي: بإيمانهم هذا المضموم إليه العمل الصالح، وهو بين واضح لا شبهة فيه، ﴿دَعَوْتَهُمْ﴾: دعاؤهم؛ لأن «اللهم»: نداء لله، ومعناه: اللهم، إنا نسيحك؛ كقول القانت في دعاء القنوت: اللهم، إياك نعبد ولك نصلي ونسجد، ويجوز أن يراد بالدعاء: العبادة، ﴿وَأَعَزَّلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: على معنى أن لا تكليف في الجنة ولا عبادة، وما عبادتهم إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه، وذلك ليس بعبادة؛ إنما يلهمونه فينطقون به تلذذاً بلا كلفة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ آبَتَيْهِ إِلَّا مُكَّاءً وَتَضِيدَةً﴾، ﴿وَمَا خَرُّ دَعْوَتُهُمْ﴾: وخاتمة دعائهم الذي هو التسييح، ﴿أَنْ﴾: يقولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ومعنى: ﴿وَيَعِيَتْهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾: أن بعضهم يحيي بعضاً بالسلام، وقيل: هي تحية الملائكة إياهم، إضافة للمصدر إلى المفعول، وقيل: تحية الله لهم، «وأن» هي المخففة من الثقيلة، وأصله: «أنه الحمد لله»، على أن الضمير للشأن؛ كقوله [من البسيط]:

..... أَنْ هَالِكُ كُلِّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ^(١)

٧٤٠ - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١١٧/٧) رقم (٣٤٦٣٢)، من طريق أبي خالد الأحمر عن عمرو ابن قيس عن عطية عن ابن عمر موقوفاً. وأخرجه الطبري في تفسيره (٥٣٤/٦) رقم (١٧٥٧٣)، من طريق بشر عن يزيد عن سعيد عن قتادة مرفوعاً. ومن طريق الطبري ذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٥٣٨/٣)، وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة به. ونقله الثعلبي عن مجاهد ومقاتل عن النبي ﷺ، وسنده إليهما في أول كتابه؛ كما في تخريج الكشاف للزبيدي (١١٩/٢).

قال الحافظ: أخرجه الطبري من طريق سعيد عن قتادة قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا أخرج من قبره - فذكره»، وروى ابن أبي شيبة من طريق عمرو بن قيس عن عطية عن ابن عمر قال: «يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره عمله في أحسن صورة». فذكر نحوه بتمامه - انتهى.

(١) وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني
شاو مشل شلول شلشل شول
في فتية كسيوف الهند قد علموا
أن هالك كل من يحفى وينتعل
للأعشى ميمون بن قيس. والханوت: محل البيع والشراء. والمراد: محل بيع الطعام والشراب. =

وقرىء: «أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ»، بالتشديد، ونصب الحمد.

﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١)

أصله: ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾: تعجيله لهم الخير، فوضع ﴿اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾: موضع تعجيله لهم الخير^(١)؛ إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم، حتى كأنَّ استعجالهم بالخير تعجيل لهم، والمراد: أهل مكة، وقولهم: فأمطر علينا حجارة من السماء، يعني: ولو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيهم إليه، ﴿لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾: لأميتوا وأهلكوا، وقرىء: «لَقَضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ»، على البناء للفاعل، وهو الله - عز وجل - وتنصره قراءة عبد الله: «لَقَضِينَا إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ».

فإن قلت: فكيف اتصل به قوله: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ / ٣١١ ب وما معناه؟

قلت: قوله: ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ﴾: متضمن معنى نفي التعجيل؛ كأنه قيل: ولا نعجل

= يتبعني شأو: أي غلام يشوي اللحم. مثل: أي مسرع. شلول: خفيف في العمل: شلشل: بالضم، أي ماض في الخدمة وقضاء الحوائج: شول - ككتف - خفيف في العمل. وقيل: مخرج للحم من القدر. في فتية: أي حال كوني مع فتیان كسيوف الهند في إنفاذ العزائم في المكارم. أو في بياض الوجوه وتهللها. والأول أنسب بقوله: قد علموا أنه، أي الحال والشأن. هالك وفان كل حاف: غير لايس للعمل، ومتعل: لايس له، وهما كناية عن الفقير والغني، وإذا استويا في الغنى فلا معنى للبلخ الذي لا يوجب البقاء. ويجوز أنهما كناية عن جميع الناس مبالغة في التعميم. ينظر ديوانه ص ١٠٩، والأزهية ص ٦٤، والإنصاف ص ١٩٩، وتخليص الشواهد ص ٣٨٢، وخزانة الأدب ٤٢٦/٥، ٣٩٠/٨، ٣٩٣/١٠، ٣٥٣/١١، ٣٥٤، والدرر ١٩٤/٢، وشرح أبيات سيويه ٧٦/٢، والكتاب ١٣٧/٢، ٧٤/٣، ١٦٤، ٤٥٤، والمحاسب ٣٠٨/١، ومغني اللبيب ١/٣١٤، والمقاصد النحوية ٢٨٧/٢، والمنصف ١٢٩/٣، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٣٩١/١٠، ووصف المباني ص ١١٥، وشرح المفصل لابن يعيش ٧١/٨، والمقتضب ٩/٣، وجمع الهوامع ١٤٢/١.

(١) قال محمود: «فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير... إلخ» قال أحمد: وهذا أيضاً من تشبيهات الزمخشري الحسنة التي تقوم على دقة نظره شاهدة وبينه، ولا يكاد وضع المصدر مؤكداً أو مقارناً لغير فعله في الكتاب العزيز يخلو من مثل هذه الفائدة الجليلة. والنحاة غايتهم أن يقولوا في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (٧) أنه أجرى المصدر على الفعل مقدراً عدم الزيادة. أو هذا المصدر لفعل دل عليه المذكور تقديره: نبت نباتاً، ولا يزيدون على ذلك، وإذا راجع الفطن قريحته وناجى فكرته، هل قرن المصدر في كتاب الله بغير فعله لفائدة أو لا - تسور بلطف النظر على مثل هذه الفوائد العلية مراتبها، فالفائدة - والله أعلم - في اقتران قوله (نباتاً) بقوله (أنبتكم) التشبيه على تحتم نفوذ القدرة في المقدور، وسرعة إمضاء حكمها حتى كان إنبات الله لهم نفس نباتهم أي إذا وجد من الله الإنبات وجد لهم النبات حتماً فكان أحد الأمرين عين الآخر فقرن به والله أعلم.

لهم الشر، ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: فمهلهم، ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم؛ إلزاماً للحنة عليهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢)

﴿لِجَنبَيْهِ﴾: في موضع الحال؛ بدليل عطف الحاليين عليه، أي: دعانا مضطجعاً، ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾.

فإن قلت: فما فائدة ذكر هذه الأحوال؟

قلت: معناه: أن المضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر، فهو يدعونا في حالاته كلها - إن كان منبطحاً عاجز النهض^(١) متخاذل التوء^(٢)، أو كان قاعداً لا يقدر على القيام، أو كان قائماً لا يطيق المشي والمضطرب - إلى أن يخف كل الخفة ويرزق الصحة بكمالها والمسحة^(٣) بتمامها، ويجوز أن يراد أن من المضرورين من هو أشد حالاً وهو صاحب الفراش، ومنهم من هو أخف وهو القادر على القعود، ومنهم المستطيع للقيام، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء؛ لأن الإنسان للجنس، ﴿مَرَّ﴾ أي: مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر، ونسي حال الجهد، أو مرّ عن موقف الإبتهال والتضرع لا يرجع إليه، كأنه لا عهد له به، ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾: كأنه لم يدعنا، خفف وحذف ضمير الشأن؛ قال [من الهزج]:

كَبَّانُ تَدْيَاهُ حُقَّانُ^(٤)

(١) قوله: «عاجز النهض» نهض نهضاً ونهوضاً: قام (ع).

(٢) قوله: «متخاذل التوء» في الصحاح: ناء ينوء نوءاً إذا نهض بجهد ومشقة (ع).

(٣) قوله: «والمسحة» في الصحاح: وعلى فلان مسحة من جمال (ع).

(٤) ونحر مشرق اللون كأن ثدياه حقان

أي: ورب نحر. ويروي بالرفع عطفاً على شيء تقدم، أي ولها. والنحر: موضع القلادة من الصدر. ويروي: وصدر مشرق، أي أبيض مضيء. ويروي: وصدر مشرق النحر. ويروي: ووجه مشرق اللون، وكان مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. وقال أبو حيان: لا حاجة للإضمار عند الإهمال. وروي: كأن ثديه بالإعمال مع التخفيف وهو قليل. وإضافة الثديين للضمير النحر للملابسة وللضمير الوجه على تقدير مضاف أي: ثديا صاحبه. والحقان: تشبیه حق وهو ما يعمل من العاج ونحوه، يوضع فيه أعز الأشياء. وقيل تشبیه حقة، وحذفت منه التاء. ينظر الإنصاف ١/١٩٧، وأوضح المسالك ١/٣٧٨، ولسان العرب (أنن)، والكتاب ٢/١٣٥، وخرزاة الأدب ١٠/٣٩٢، ٣٩٤، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٤، والدرر ٢/١٩٩، وشرح المفصل لابن يعين ٨/٨٢، وشرح التصريح ١/١٣٤، وشرح شذور الذهب ص ٣٦٩، وتخليص الشواهد =

﴿كَذَلِكَ﴾: مثل ذلك التزيين، ﴿زَيْنَ لِلْمُتَرَفِينَ﴾: زين الشيطان بوسوسته أو الله بخذلانه وتخليته، ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: من الإعراض عن الذكر واتباع الشهوات.

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾
 كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ
 تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿لَمَّا﴾: ظرف لأهلكنا، والواو في ﴿وَجَاءَتْهُمْ﴾: للحال، أي: ظلموا بالكذب، وقد جاءتهم رسلهم بالحجج، والشواهد على صدقهم وهي المعجزات، وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾: يجوز أن يكون عطفاً على ظلموا؛ وأن يكون اعتراضاً، واللام لتأكيد النفي، يعني: وما كانوا يؤمنون حقاً؛ تأكيداً لنفي إيمانهم، وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على كفرهم، وأن الإيمان مستبعد منهم، والمعنى: أن السبب في إهلاكهم تكذيب الرسل، وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن أزموا الحجة ببعثه الرسل، ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل ذلك الجزاء، يعني: الإهلاك، ﴿نَجْزِي﴾: كل مجرم، وهو وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله - ﷺ - وقرىء: «يجزي»، بالياء، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾: الخطاب للذين بعث إليهم محمد - ﷺ - أي: استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكنا، ﴿لِنَنْظُرَ﴾: أتعملون خيراً أم شراً فنعاملكم على حسب عملكم، و﴿كَيْفَ﴾: في محل نصب بتعملون لا ينتظر؛ لأن معنى الاستفهام فيه يحجب أن يتقدم عليه عامله.

فإن قلت: كيف جاز النظر على الله - تعالى - وفيه معنى المقابلة^(١)؟

قلت: هو مستعار للعلم المحقق، الذي هو العلم بالشيء/ ١٣١٢ موجوداً شبه بنظر الناظر، وبيان المعايين في تحققه.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِبِهْ إِن عَرِهَ هَذَا أَوْ
 بَدَلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ

= ص ٣٨٩، والجني الداني ص ٥٧٥، وشرح ابن عقيل ص ١٩٧، وشرح قطر الندى ص ١٥٨، وشرح الأشموني ١/١٤٧، والمقاصد النحوية ٢/٣٠٥، والمنصف ٣/١٢٠٨، ومع الهوامع ١/١٤٣، والدر المصون ٢/٣٩٠.

(١) قال محمود: «إن قلت كيف جاز النظر على الله تعالى... إلخ» قال أحمد: وكنت أحسب أن الزمخشري يقتصر على إنكار رؤية العبد لله تعالى، فضم إلى ذلك إنكار رؤية الله، والجمع بين هذين التزغتين عقيدة طائفة من القدرية، يقولون: إن الله لا يرى ولا يُرى، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وتقدم إبطال دعواهم أن النظر يستلزم المقابلة والجسمية فلا نعیده، والله الموفق.

عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد للمشركين، فقالوا: ﴿أَنْتِ بِقُرْآنٍ﴾: آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذلك تبعك، ﴿أَوْ بَدَلَهُ﴾: بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط ذكر الآلهة وذم عبادتها، فأمر بأن يجيب عن التبديل؛ لأنه داخل تحت قدرة الإنسان، وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة مما أنزل، وأن يسقط ذكر الآلهة، وأما الإتيان بقرآن آخر، فغير مقدور عليه للإنسان، ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾: ما ينبغي لي وما يحل؛ كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾: من قبل نفسي، وقرىء: بفتح التاء من غير^(١) أن يأمرني بذلك ربي، ﴿إِنْ أَسْئَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾: لا آتي ولا أذر شيئاً من نحو ذلك، إلا متبعاً لوحى الله وأوامره، إن نسخت آية تبعت النسخ، وإن بدلت آية مكان آية تبعت التبديل، وليس إليّ تبديل ولا نسخ، ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾: بالتبديل والنسخ من عند نفسي: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

فإن قلت: أما ظهر وتبين لهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن حتى قالوا: ﴿أَنْتِ بِقُرْآنٍ عَيْرٍ هَذَا؟﴾

قلت: بلى، ولكنهم كانوا لا يعترفون بالعجز، وكانوا يقولون: لو نشاء لقلنا مثل هذا، ويقولون: افتري على الله كذباً، فينسبونه إلى الرسول، ويزعمونه قادراً عليه وعلى مثله، مع علمهم بأن العرب مع كثرة فصاحتها وبلغائها إذا عجزوا عنه، كان الواحد منهم أعجز.

فإن قلت: لعلهم أرادوا: «أنت بقرآن غير هذا أو بدله»، من جهة الوحي كما أتيت بالقرآن من جهته، وأراد بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾: ما يتسهل لي وما يمكنني أن أبدله.

قلت: يرده قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾.

فإن قلت: فما كان غرضهم وهم أدهى الناس وأنكرهم في هذا الاقتراح؟

قلت: الكيد والمكر، أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن، ففيه أنه من عندك وأنت قادر على مثله، فأبدل مكانه آخر، وأما اقتراح التبديل والتغيير، فللطمع ولاختبار الحال، وأنه إن وجد منه تبديل، فإما أن يهلكه الله فينجو منه، أو لا يهلكه فيسخروا منه، ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحاً لاقترائه على الله.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ ۗ فَقَدْ لَيْتُّ فِيكُمْ عُمْرًا مِّنْ قَبْلِهِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

﴿١٦﴾

(١) قوله: «من غير» لعله «أي من غير» (ع).

﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجبياً خارجاً عن العادات، وهو: أن يخرج رجل أُمي لم يتعلم، ولم يستمع، ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره، ولا نشأ في بلد فيه علماء فيقرأ عليهم كتاباً فصيحاً، يبهر كل كلام فصيح، ويعلو على كل منشور ومنظوم، مشحوناً بعلوم من علوم الأصول والفروع، وأخبار مما كان وما يكون، ناطقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله، وقد بلغ/ ٣١٢ ب بين ظهرانيكم^(١) أربعين سنة تطلعون على أحواله، ولا يخفى عليكم شيء من أسراره، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه وألصقهم به، ﴿وَلَا أَذْرِيكُمْ يَدِي﴾: ولا أعلمكم به على لساني، وقرأ الحسن: «ولا أدراكم به»، على لغة من يقول: أعطاته وأرضاته، في معنى: أعطيته وأرضيته؛ وتعضده قراءة ابن عباس: «ولا أذرتكم به»، ورواه الفراء «ولا أدراكم به»، وبالهمز، وفيه وجهان:

أحدهما: أن تقلب الألف همزة، كما قيل: لبأت بالحج، ورثأت الميت وحلأت^(٢) السويق؛ وذلك لأن الألف والهمزة من واد واحد؛ ألا ترى أن الألف إذا مستها الحركة انقلبت همزة.

والثاني: أن يكون من درأته إذا دفعته، وأدراته إذا جعلته دارئاً، والمعنى: ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤوني بالجدال وتكذبوني، وعن ابن كثير: «ولأدراكم به»، بلام الابتداء؛ لإثبات الإدراء، ومعناه: لو شاء الله، ما تلوته أنا عليكم ولأعلمكم به على لسان غيري؛ ولكنه يمن على من يشاء من عباده، فخصني بهذه الكرامة، ورآني لها أهلاً دون سائر الناس، ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمراً﴾، وقرئ: (عمرأ) بالسكون، يعني: فقد أقمت فيما بينكم يافعاً وكهلاً، فلم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه ولا قدرت عليه، ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان فتتهموني باختراعه، ﴿أَفَلَا تَمْلِكُونَ﴾: فتعلموا أنه ليس إلا من الله لا من مثلي، وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم: «إئت بقرآن غير هذا» من إضافة الافتراء إليه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّكُمْ لَا يُفْلِحُونَ﴾

﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٧)

﴿مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: يحتمل أن يريد: افتراء المشركين على الله في قولهم: إنه ذو شريك وذو ولد، وأن يكون تفادياً مما أضافوه إليه من الافتراء.

(١) قوله: «ظهرانيكم» في الصحاح: ظهرانيهم - بفتح النون (ع).

(٢) قوله: «وحلأت» أي جعلته حلواً (ع).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَنِيؤْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨)

﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾: الأوثان التي هي جماد لا تقدر على نفع ولا ضرر، وقيل: إن عبدوها لم تنفعهم، وإن تركوا عبادتها لم تضرهم، ومن حق المعبود أن يكون مثيراً على الطاعة، معاقباً على المعصية، وكان أهل الطائف: يعبدون اللات، وأهل مكة: العزى، ومناة، وهبل، وأسافا، ونائلة، ﴿و﴾: كانوا ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: وعن النضر بن الحارث: إذا كان يوم القيامة، شفعت لي اللات والعزى، ﴿أَنْتَنِيؤْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾: أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده، وهو إنباء بما ليس بالمعلوم لله، وإذا لم يكن معلوماً له وهو العالم الذات المحيط بجميع المعلومات، لم يكن شيئاً؛ لأن الشيء ما يعلم ويخبر عنه، فكان خبراً ليس له مخبر عنه.

فإن قلت: كيف أنبأوا الله بذلك؟

قلت: هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام، وإعلام بأن الذي أنبؤوا به باطل غير منطوق تحت الصحة، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه كما يخبر الرجل الرجل / ٣١٣ بما لا يعلمه، وقرئ: «أَنْتَنِيؤْنَ»، بالتخفيف، وقوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾: تأكيد لنفيه؛ لأن ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم، ﴿تُشْرِكُونَ﴾: قرئ بالياء والياء، وما: موصولة أو مصدرية، أي: عن الشركاء الذين يشركونهم به أو عن إشراكهم.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّى بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩) ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ (٢٠)

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم؛ وذلك في عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل، وقيل: بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين دياراً، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾: وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة، ﴿لَفُضِّى بَيْنَهُمْ﴾: عاجلاً فيما اختلفوا فيه، ولميز المحق من المبطل، وسبق كلمته بالتأخير؛ لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف، وتلك دار ثواب وعقاب، وقالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا﴾: أرادوا آية من الآيات التي كانوا يقترحونها، وكانوا

لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة، التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر، بديعة غريبة في الآيات، دقيقة المسلك من بين المعجزات، وجعلوا نزولها كلا نزول، وكأنه لم ينزل عليه آية قط، حتى قالوا: لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه؛ وذلك لفرط عنادهم، وتماديهم في التمرّد وانهماكهم في الغي؛ ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به، يعني؛ أنّ الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو، ﴿فَأَنْتَظِرُوا﴾: نزول ما اقترحتموه، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظِرِينَ﴾: لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات.

﴿وَإِذَا أَدَّأْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَكُرُّونَ ﴿١١﴾﴾

سلط الله القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون، ثم رحمهم بالحيا، فلما رحمهم، طفقوا يطعنون في آيات الله، ويعادون رسول الله - ﷺ - ويكيدونه؛ و«إذا» الأولى: للشرط، والآخرة: جوابها، وهي للمفاجأة، والمكر: إخفاء الكيد وطيه، من الجارية الممكورة المطوية الخلق، ومعنى ﴿مَسَّتْهُمْ﴾: خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم.

فإن قلت: ما وصفهم بسرعة المكر، فكيف صح قوله: ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾؟

قلت: بلى، دلت على ذلك كلمة المفاجأة؛ كأنه قال: وإذا رحمتناهم من بعد ضراء فاجؤوا وقوع المكر منهم، وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رءوسهم من مس الضراء، ولم يتلبثوا ريثما يسيغون غصتهم، والمعنى: أن الله - تعالى - دبر عقابكم، وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام، ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ﴾: إعلام بأن ما تظنون خافياً مطوياً لا يخفى على الله، وهو منتقم منكم، وقرئ: «يمكرون»، بالثناء والياء، وقيل: مكرهم قولهم سقينا بنوء كذا، وعن أبي هريرة: «إن الله ليصبح / ٣١٣ ب القوم بالنعمة ويمسيهم بها، فتصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون: مطرنا بنوء كذا» (٧٤١).

٧٤١ - قال الزبلي في تخريج الكشاف (١١/٦٦٢): هكذا رواه المصنف موقوفاً، وهو مرفوع، رواه إسحاق بن راهويه في مسنده، والطبري في تفسيره في سورة الواقعة، ومن طريق الطبري رواه الثعلبي؛ كلهم من حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى ليصبح عباده بالنعمة، أو ليمسيهم بها، فيصبح قوم بها كافرين، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا» أ.هـ. والحديث أخرجه الطبري (١١/٦٦٢) رقم (٣٣٥٦١).

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتَ فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهَمَّ بَرِيحٍ طَبِيبَةٍ وَقَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِن آجَبْتَنَا مِنْ هُدُوهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢١﴾ فَلَمَّا آجَبْتُمُودًا إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قرأ زيد بن ثابت: «ينشركم»، ومثله قوله: ﴿فَأَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

فإن قلت: كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر^(١)، والتسيير في البحر إنما هو بالكون في الفلك؟

قلت: لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد «حتى» بما في حيزها، كأنه قيل: يسيركم حتى إذا وقعت هذه

قال الحافظ: =

أخرجه إسحاق والطبري: والشعبي من طريق ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم، اليماني عن أبي سلمة عن أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى ليصبح عباده بالنعمة أو ليمسيهم بها، فيصبح بها قوم كافرون، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا» قال محمد: فذكرت الحديث لسعيد بن المسيب فقال: ونحن سمعناه من أبي هريرة. ولمسلم من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً: «قال الله تعالى: ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريقين بها كافرين، يقولون: الكوكب وبالكوكب مطرنا». انتهى.

(١) قال محمود: «إن قلت كيف جعل الكون في الفلك غاية... إلخ» قال أحمد: وهذه أيضاً من نكته التي لا يكتنه حسننها، وقد مر لي قبل الوقوف عليها مثل هذا النظر بعينه في توأمتها، وذلك عند قوله تعالى ﴿وَأَيُّهَا الَّذِينَ هُمْ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ أَبَىٰ أَوْ كَفَرُوا فَادْفَنُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ وقد استدل الزمخشري بها لأبي حنيفة في أن الصغير يتلى قبل البلوغ بأن يسلم إليه قدر من المال يمتحن فيه، خلافاً لمالك، فإنه لا يرى الابتلاء قبل البلوغ قال الزمخشري: ووجه الاستدلال أن الله تعالى جعل البلوغ غاية الابتلاء، فيلزم وقوع الابتلاء قبله ضرورة كونه مغياً به. واعترضت هذا الاستدلال فيما سلف بأن المجمعول غاية هو حملة ما في حيز «حتى» من البلوغ مقروناً بإبتناس الرشد، وهذا المجموع هو الذي يلزم وقوعه بعد الابتلاء، ولا يلزم من ذلك أن يقع كل واحد من مفرديه بعد الإبتلاء، بل من الممكن أن يقع أحدهما قبل والآخر بعد، فلا يحصل المجموع إلا بعد الإبتلاء. ويوضح ذلك هذه الآية، فإنه تعالى جعل غاية تسييرهم في الفلك كونهم فيها، مضافاً إلى ما ذكر معه. ونحن نعلم أن كونهم في الفلك - وذلك أحد ما جعل غاية - متقدم على التسيير وإن كان المجموع واقعاً، كوقوع الحادثة بجملتها بعد الكون في الفلك والله أعلم. وإنما بسطت القول ههنا لفواته ثم، فجدد بما مضى عهداً.

الحادثة، وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف، وتراكم الأمواج، والظن للهلاك^(١)، والدعاء بالإنجاء.

فإن قلت: ما جواب «إذا»؟ قلت: جاءتها، فإن قلت: فدعوا؟ قلت: بدل من ظنوا؛ لأن دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به، فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت: المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتوبيخ، فإن قلت: ما وجه قراءة أم الدرداء: «في الفلكي»، بزيادة ياء النسب؟ قلت: قيل: هما زائدتان كما في الخارجي والأحمري، ويجوز أن يراد به اللج والماء الغمر الذي لا تجري الفلك إلا فيه، والضمير في ﴿جَرَيْنَ﴾: للفلك؛ لأنه جمع فلك كالأسد، في فعل أخي فعل^(٢)، وفي قراءة أم الدرداء: «للفلك»، أيضاً؛ لأن الفلكي يدل عليه، ﴿جَاءَتْهَا﴾: جاءت الريح الطيبة، أي: تلقتها، وقيل: الضمير للفلك، ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾: من جميع أمكنة الموج، ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾: أي: أهلكوا جعل إحاطة العدو بالحي مثلاً في الهلاك، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾: من غير إشراك به؛ لأنهم لا يدعون حينئذ غيره معه، ﴿لِيُنْزِلَ أُنجِيَّتَنَا﴾: على إرادة القول، أو لأن: (دعوا): من جملة القول، ﴿يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: يفسدون فيها، ويعبثون متراقين في ذلك، معنيين فيه، من قولك: بغى الجرح إذا ترامى إلى الفساد.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿يَقْدِرُ الْحَقُّ﴾، والبغي لا يكون بحق؟

قلت: بلى، وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة، وهدم دورهم، وإحراق زروعهم، وقطع أشجارهم، (٧٤٢) كما فعل رسول الله - ﷺ - بيني قريظة، قرىء: «متاع

٧٤٢ - أخرجه البخاري (٦٧/٨): كتاب المغازي: باب حديث بني النضير، حديث (٤٠٢٨)، ومسلم (٣٣٤/٦ - النووي): كتاب الجهاد والسير: باب إجلاء اليهود من الحجاز، حديث (١٧٦٦/٦٢) وأبو داود (١٥٧/٣): كتاب الخراج والإمارة والفيء، حديث (٣٠٠٥).
كلهم من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر به.
قال الحافظ: متفق على معناه من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - انتهى.

- (١) قوله: «والظن للهلاك» عبارة النسفي: بالهلاك (ع).
(٢) قوله: «كالأسد في فعل» أي كما جاء «فعل» بالضم في «فعل» بفتحين، كأسد في أسد، جاز مجيء «فعل» بالضم في فعل «بالضم» كفلك في فلك، وذلك لأن «فعلاً» بفتحين و«فعلاً» بالضم أخوان، لأنهما يشتركان في الشيء الواحد، كالعرب والعرب والعجم والعجم، والرهب والرهب. فما جاز في أحدهما لا يمنع في الآخر، وقد جاز «فعل» بالضم في «فعل» بالفتح، فليجز «فعل» بالضم في «فعل» بالضم، لأنهما أخوات. كذا في الصحاح، فتأمله.

الحياة الدنيا، بالنصب.

فإن قلت: ما الفرق بين القراءتين؟

قلت: إذا رفعت كان المتاع خيراً للمبتدأ الذي هو: (بغيتكم)، و﴿عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾: صلته؛ كقوله: ﴿فَبِعَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦]، ومعناه: إنما بغيتكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم، يعني: بغى بعضكم على بعض منفعة الحياة الدنيا لا بقاء لها، وإذا نصبت: ف﴿عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ خبر غير صلة، معناه: إنما بغيتكم وبال على أنفسكم، و﴿مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾: في موضع المصدر المؤكد، كأنه قيل: تمتعون متاع الحياة الدنيا، ويجوز أن يكون الرفع على: هو متاع الحياة الدنيا بعد تمام الكلام، وعن النبي - ﷺ - أنه قال: «لَا تَمُكَّرُ وَلَا تُعْنُ مَا كَرَأَ، وَلَا تُبِغِ وَلَا تُعْنُ بَاغِيًّا، وَلَا تُنْكِثُ وَلَا تُعْنُ نَاكِثًا» (٧٤٣)، وكان يتلوها، وعنه عليه الصلاة والسلام: «أَسْرَعُ الْخَيْرِ نَوَابِأَ صَلَّةِ الرَّجِمِ، وَأَعْجَلُ الشَّرِّ عِقَابًا الْبَغْيُ وَالْيَمِينُ الْفَاجِرَةُ» (٧٤٤) وروي: «ثِنْتَانِ يُعْجَلُهُمَا اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي الدُّنْيَا: الْبَغْيُ،

٧٤٣ - أخرجه ابن المبارك في كتابه «الزهد والرقائق» (ص ٢٥٢) رقم (٧٢٥)، من طريق يونس بن يزيد عن الزهري مرسلًا قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا تمكر ولا تُعْنُ ما كَرَأَ؛ فإن الله يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرَ السَّيِّئَ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، ولا تبغ ولا تُعْنُ باغياً؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا بِغَيْتِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾، ولا تنكث ولا تُعْنُ ناكثاً فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾.

وأخرج الحاكم بعضه في مستدركه (٣٣٨/٢) عن عيينة بن عبد الرحمن القطفاني سمعت أبي يحدث عن أبي بكره قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تبغ ولا تعن باغياً، فإن الله يقول: ﴿إِنَّمَا بِغَيْتِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾».

وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه أ.هـ. وعن الحاكم أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٨٥/٥) رقم (٦٦٧١).
ومن طريق ابن المبارك رواه الشعلبي في تفسيره في سورة فاطر؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٢١/٢).

قال الحافظ:

أخرجه ابن المبارك في الزهد: أخبرنا يونس بن يزيد عن الزهري: قال «بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا تمكر ولا تعن ما كَرَأَ، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرَ السَّيِّئَ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ولا تبغ ولا تعن باغياً فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا بِغَيْتِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾؛ ولا تنكث ولا تعن ناكثاً، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾، وفي مستدرك الحاكم بعضه من حديث أبي بكره مرفوعاً: «لا تبغ ولا تعن باغياً فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا بِغَيْتِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ انتهى».

٧٤٤ - أخرجه ابن ماجه (١٤٠٨/٢): كتاب الزهد: باب البغي، حديث (٤٢١٢)، وأبو يعلى في مسنده (١٠/٨ - ١١) رقم (٤٥١١٢) كلاهما من طريق معاوية بن إسحاق عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين به.

وله شاهد من حديث أبي بكره:

أخرجه أبو داود (٢٧٦/٤): كتاب الأدب: باب في النهي عن البغي، حديث (٤٩٠٢)، والترمذي =

وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» (٧٤٥)، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: «لو بغى جبل على جبل
لذلك الباغي» (٧٤٦)، وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه [من البسيط]:

= (٦٦٤/٤ - ٦٦٥): كتاب صفة القيامة، حديث (٢٥١١)، وابن ماجه (١٤٠٨/٢): كتاب الزهد:
باب البغي، حديث (٤٢١١)، والحاكم في المستدرک (٣٥٦/٢) و(١٦٢/٤ - ١٦٣)، وقال
الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه اهـ. والبخاري في الأدب المفرد ص (٢٨) برقم (٦٧):
كلهم من طريق عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي بكره به.

وأخرجه إسحاق بن راهويه في «مسنده»، والثعلبي في تفسيره كلاهما عن مكحول به؛ كما في
تخريج الكشاف للزيلعي (١٢٢/٢).

قال الحافظ:

أخرجه إسحاق في مسنده عن جرير عن برد بن بسار عن مكحول رفعه: وأعجل الخير قراباً صلة
الرحم، وأعجل الشر عقاباً البغي واليمين الفاجرة، تدع الديار بلاقع، ولأبي يعلى من حديث عائشة
بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين رفعته، «أسرع الخير ثواباً صلة الرحم. وأسر الشر عقوبة البغي». انتهى.

٧٤٥ - أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٥٩١)، وذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢٢/٢)،
وعزاه إلى إسحاق بن راهويه، والطبراني في معجمه.

قال الحافظ:

أخرجه إسحاق في مسنده، والطبراني من حديث عبد الله بن أبي بكره عن أبيه. والبخاري في
الأدب المفرد من رواية بكار بن عبد العزيز عن أبيه عن جده رفعه: «كل الذنوب يؤخر الله منها ما
شاء إلى يوم القيامة إلا البغي وعقوق الوالدين، فإنه يعجل لصاحبه في الدنيا قبل الموت». انتهى.

٧٤٦ - أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (٢٩١/٥) رقم (٦٦٩٣) عن الأصم عن محمد بن إسحاق
قال: «لو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكاً».

قال البيهقي: تابعه فطر عن أبي يحيى القتات. وأخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية»: (٢/
٧٧٧) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: لو بغى جبل على جبل لخر الجبل الذي بغى
عليه.

قال ابن عدي: هذا حديث باطل عن ابن أبي ذنب لم يروه غير إسماعيل، وكان يحدث عن الثقات
بالبواطيل، وقال ابن جبان: كان يروي الموضوعات من الثقات لا يحل الرواية عنه. أ.هـ.
وأخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية أيضاً (٧٧٧/٢) عن سفيان بن عيينة عن الزهري عن أنس
عن النبي ﷺ أنه قال: لو بغى جبل على جبل لجعله الله دكاً.

قال أبو حاتم: كتبت عنه نحو خمس مائة حديث كلها موضوعة، ولعله قد وضع على الأئمة أكثر
من ثلاثة آلاف حديث.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٤٤/٣) وعزاه إلى ابن مردويه عن كل من ابن عباس وابن
عمر - رضي الله عنهما - .

وأخرجه ابن المبارك في كتاب «البر والصلة»؛ والبخاري في الأدب المفرد؛ كما في تخريج
الكشاف للزيلعي (١٢٣/٢) عن ابن عباس موقوفاً.

قال الحافظ:

أخرجه البخاري في الأدب حدثنا أبو نعيم حدثنا قطر بن خليفة عن أبي يحيى القتات: سمعت =

يَا صَاحِبَ الْبَغْيِ إِنَّ الْبَغْيَ مَضْرَعَةٌ فَارْزُقْ فَخَيْرُ فَعَالِ الْمَرْءِ أَعْدَلُهُ
 قَلْبُو بَغْيِي جَبَلٌ يَوْمًا عَلَى جَبَلٍ لِأَنَّكَ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ^(١)
 وعن محمد بن كعب: «ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي، والنكث، والمكر»، قال
 الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ وَمِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ
 وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا
 أَمْثَرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
 يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

هذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها، وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التف وتكاثف، وزين الأرض بخضرتها ورفيغته^(٢)، ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾: فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً، ﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾: كلام فصيح: جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس، إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين، وأصل: (ازَّيَّنَتْ): تزينت، فأدغم، وبالأصل قرأ عبد الله، وقرئ: «وازيَّنت»، أي: أفعلت، من غير إعلال الفعل كأغيلت، أي: صارت ذات زينة، «وازيَّانت»، بوزن ابياضت، ﴿قَدِرُوا عَلَيْهَا﴾: متمكنون من منفعتها محصولون لثمرتها، رافعون لغلتها، ﴿أَمْثَرًا لَيْلًا﴾: وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم، ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾: فجعلنا زرعها، ﴿حَصِيدًا﴾: شبيهاً بما يحصد من الزرع في قطعه واستنصاله، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ﴾:

= مجاهداً عن ابن عباس - رضي الله عنهما - موقوفاً. ورواه ابن المبارك في الزهد عن قطر عن يحيى عن مجاهد مرسلأ. ورواه البيهقي في الشعب من طريق الأعمش عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس. ورواه ابن مردويه عن أنس - رضي الله عنه - أخرجه ابن جبان في الضعفاء في ترجمة أحمد بن الفضل. وقال: إنه كان يضع الحديث. انتهى.

(١) كان المأمون بن الرشيد يتمثل بهما في بغي أخيه عليه، وكرر لفظ البغي تنفيراً عنه، وشبهه بالمصرعة لأن صاحبه يرتبك فيه في العاقبة وربما هلك، وربع يربع، إذا لم يتجاوز قدر نفسه. فاربع: أي الزم قدرك واعدل في فعلك. والفعل - بالفتح -: غالب في فعل الخير. والمراد هنا مطلق الفعل، أي: فخير عمل المرء أقومه، فلو بغى جبل على جبل يوماً من الأيام لعوقب واندك منه أعاليه. ويلزم منه اندكك أسافله. وهذا عقد قول ابن عباس رضي الله عنهما: لو بغى جبل على جبل لذك الباغي.

(٢) قوله: «ورفيغته» أي يرمقه وتلالؤه. وشجر رفيف: إذا تددت أوراقه، كذا في الصحاح (ع).

كأن لم يغن زرعها، أي: لم ينبت^(١) على حذف المضاف في هذه المواضع لا بد منه، وإلا لم يستقم المعنى، وقرأ الحسن: «كأن لم يغن»، بالياء على أن الضمير للمضاف المحذوف، الذي هو الزرع، وعن مروان أنه قرأ على المنبر: «كأن لم تنغن بالأمس»؛ من قول الأعشى [من المتقارب]:

طَوِيلَ الشَّوَاءِ طَوِيلَ التَّغْنِ^(٢)

والأمس: مثل في الوقت القريب؛ كأنه قيل: كأن لم تغن آنفاً.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿دَارِ السَّلَٰمِ﴾: الجنة، أضافها إلى اسمه؛ تعظيماً لها، وقيل: السلام: السلامة؛ لأن أهلها سالمون من كل مكروه، وقيل: لفشو السلام بينهم، وتسليم الملائكة عليهم، ﴿إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة ٢٦]، ﴿وَيَهْدِي﴾: ويوفق، ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾: وهم الذين علم أن اللطف يجدي عليهم؛ لأن مشيئته تابعة لحكمته، ومعناه: يدعو العباد كلهم إلى دار السلام، ولا يدخلها إلا المهديون.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِهِمْ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَزِيَادَةٌ﴾

﴿الْحُسْنَى﴾: المشوبة الحسنى، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: وما يزيد على المشوبة وهي التفضل؛

(١) قوله: «أي لم ينبت» لعله لم يثبت. وفي الصحاح: غني بالمكان أي أقام، وغني أي عاش.

(٢) وكنت امرأ زمنأ بالعراق طویل الشوَاء طویل التغن

فأنبئت قيساً ولم آتته على نأيه ساد أهل اليمن

فجئتك مرتاداً ما أخبروا ولولا الذي خبروا لم ترون

للأعشى، يستمنح قيس بن معد يكرب ويقول: وكنت رجلاً طویل الشوَاء في العراق، طویل التغني فيه دهرأ طویلأ، فزمنأ: ظرف. ويجوز قراءته: زمنأ، كحذر: أي هرم. والشوَاء: الإقامة. وغني بالمكان يغني، كرضى يرضى: أقام ومكث. وقد يقال: تغني تغنيأ كترضى ترضياً، إذا تمكث وتلبث. فالتغني - بالتشديد -: مصدر حذف لامة عند الوقف وإن كان حذفها قليلاً فأنبئت قيساً والحال أني لم أجه: مع أنه ناه أي بعيد عني، أي مع بعده ساد أهل اليمن بجوده وكرمه على أهل الأرض، فجملة «ساد» في محل المفعول الثاني، ثم بعد ما قدم المدح التفت إلى خطابه بقوله: فجئتك مرتاداً ومتعرفاً ومتطلباً لما أخبروا به من كرمك وجودك، وإضافة مرتاد للموصول لا تفيده التعريف؛ لأنها إضافة الوصف لمعموله لفظياً، فصح وقوعه حالاً، ولولا الذي خبروني به لم تنظرني عندك ولم أجن إليك. وروي: ولم أبله، من بلاه يبلوه إذا اختبره. وروي خبر أهل اليمن أي أنبته والحال أني لو أختبره أفضل أهل اليمن، فجئتك مختبراً لحالك. ينظر: ديوانه ص (٢٥).

ويدل/ ٣١٤ ب عليه قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٨]، وعن عليّ - رضي الله عنه -: الزيادة: غرفة من لؤلؤة واحدة، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: «الحسنى»: الحسنة، والزيادة: عشر أمثالها، وعن الحسن - رضي الله عنه -: «عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف»، وعن مجاهد - رضي الله عنه -: «الزيادة: مغفرة من الله ورضوان»، وعن يزيد بن شجرة: «الزيادة: أن تمرّ السحابة بأهل الجنة فتقول: ما تريدون أن أمطركم؟ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم، وزعمت المشبهة والمجبرة^(١) أن الزيادة النظر إلى وجه الله - تعالى -^(٢) وجاءت بحديث مرقوع^(٣): «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نُودُوا: أَنْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيُكشَفُ الْحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ، مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئاً هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ» (٧٤٧) ﴿وَلَا يَرَهُنَّ

٧٤٧ - أخرجه مسلم (١٩/٢ - ٢٠ - النووي): كتاب الإيمان: باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى حديث (٢٩٧/١٨) والثرمذي (٦٨٧/٤): كتاب صفة الجنة: باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى، حديث (٢٥٥٢)، وقال: هذا حديث إنما أسنده حماد بن سلمة ورفعه، وابن ماجه (٦٧/١) المقدمة، حديث (١٨٧).

كلهم من طريق ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي ﷺ به .
قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٢٤/٢):

والمعجب أن الثرمذي لما روى هذا الحديث في كتابه، لم يحسنه ولم يصححه ولا قال: وفي الباب عن أحد من الصحابة، وإنما قال: هكذا رفعه حماد بن سلمة، وقد رواه سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قوله، لم يذكر فيه عن صهيب، عن النبي ﷺ أ. ه. =

(١) قوله: «وزعمت المشبهة والمجبرة» يريد أهل السنة القائلين بجواز رؤيته تعالى ووقوعها في الآخرة، خلاف المعتزلة في ذلك (ع).

(٢) ذكر محمود في الزيادة تفاسير كثيرة، ثم قال: «وزعمت المشبهة والمجبرة أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى... إلخ». قال أحمد: نسبة تفسير الزيادة برؤية الله تعالى إلى زعم أهل السنة الملقبين عنده بالمشبهة والمجبرة: مرور على ديدنه المعروف في التكذيب بما لم يحط به علماً، وهذا التفسير مستفيض منقول عن جملة الصحابة، والحديث المروي فيه مدون في الصحاح متفق على صحته، وقد جعل أهل السنة جاؤوا به من عند أنفسهم، ومن قبل قال المصرون على الكفر لسيد البشر وصاحب السنة: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، حملاً له على أنه جاء به من عنده، فلأهل السنة إذا أسوة بصاحبها، ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، فابتلاء الحق بالباطل قديم، والله الموفق. وإن في قوله تعالى على أثر ذلك ﴿وَلَا يَرَهُنَّ وَجُوهَهُمْ قَدَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ﴾ مصداقاً لصحة هذا التفسير، فإن فيه تبييناً على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه الله تعالى فجدير بهم ألا يرهق وجوههم قتر البعد ولا ذلة الحجاب، عكس المحرومين المحجوبين فإن وجوههم مرهقة بقتر الطرد وذلة البعد. نسأل الله الكفاية. فأولئك يغشى وجوههم أنوار المشاهدة، وهؤلاء يغشى وجوههم كقطع الليل المظلم، منهم شقي وسعيد.

(٣) قوله: «بحديث مرقوع بالقاف، أي مفترى، كذا قيل. وهو في مقابلة المرفوع بالفاء، أي المضاف إلى النبي ﷺ».

وَجُوهَهُمْ ﴿١١﴾ : لا يغشاهما، ﴿قَتَرٌ﴾ : غبرة فيها سواد، ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ : ولا أثر هوان وكسوف بال. والمعنى : لا يرهقهم ما يرهق أهل النار إذكاراً بما ينقذهم منه برحمته؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿رَمَقَهَا قَدْرَةٌ ﴿١١﴾﴾ [عبس: ٤١]، ﴿وَرَهَقَهُمْ ذَلَّةٌ﴾ .

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءَ سَيِّئَةٍ بِيئِلِهَا وَرَهَقَهُمْ ذَلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

فإن قلت : ما وجه قوله : ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءَ سَيِّئَةٍ بِيئِلِهَا﴾ ، وكيف يتلاءم؟

قلت : لا يخلو، إما أن يكون : ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا﴾ : معطوفاً على قوله : ﴿الَّذِينَ أَحْسَبُوا﴾ ؛ كأنه قيل : وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، وإما : أن يقدر : وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها على معنى : جزاؤهم أن تجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزداد عليها، وهذا أوجه من الأول؛ لأن في الأول عطفاً على عاملين، وإن كان الأخفش يجيزه، وفي هذا دليل على أن المراد بالزيادة الفضل؛ لأنه دل بترك الزيادة على السيئة على عدله، ودل ثمة بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله، وقرئ : «يرهقهم ذلة»، بالياء، ﴿مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ أي : لا يعصمهم أحد من سخط الله وعذابه، ويجوز ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين، ﴿مُظْلِمًا﴾ : حال من الله، ومن قرأ (قطعا) بالسكون من قوله : (يقطع من الليل)، جعله صفة له؛ وتعضده قراءة أبي بن كعب : «كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم» .

فإن قلت : إذا جعلت مظلماً حالاً من الليل، فما العامل فيه؟

قلت : لا يخلو إما أن يكون : (أغشيت) من قبل إن (من الليل) : صفة لقوله : (قطعا)، فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة، وأما : أن يكون معنى الفعل في : (من الليل) ^(١) .

= قال الحافظ :

قال الطيبي : قوله «مرفوع» هو عنده بالثقاف، أي مرفوع معدي . وهو عند أهل السنة بالفاء اهـ . وقد أخرجه مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب . ورواه الترمذي وقال : كذا رفعه حماد بن سلمة . وقد رواه سليمان بن المغيرة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قوله . انتهى . وفي الباب عن أبي موسى مرفوعاً أخرجه الطبراني في مسند الشاميين . وللطبري . وعن ابن عمر وأنس أخرجهما ابن مردويه بإسنادين ضعيفين . وعن أبي بكر الصديق أخرجه إسحاق في مسنده من رواية عامر بن سعد عنه . وعن ابن عباس وعلى أخرجهما ابن مردويه أيضاً . انتهى .

(١) قال السمين الحلبي : قال الشيخ : «أما الوجه الأول فهو بعيد، لأن الأصل أن يكون العامل في =

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ
مَا كُنْتُمْ إِلَّا أَنْتُمْ نَعْبُدُونَ﴾ (٢٨)

﴿مَكَانَكُمْ﴾: الزموا مكانكم، لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم^(١)، و﴿أَنْتُمْ﴾: أكد به الضمير في مكانكم؛ لسدّه مسدّ قوله: الزموا، ﴿وَشُرَكَاءُكُمْ﴾: عطف عليه، وقرىء: (وشركاءكم) على أنّ الواو بمعنى: مع، والعامل فيه ما في مكانكم من معنى الفعل؛ ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾: ففرقتنا بينهم، وقطعنا أقرانهم، والوصل^(٢) التي كانت بينهم في الدنيا، أو: فباعدنا بينهم بعد/ ٣١٥ الجمع بينهم في الموقف، وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم؛

= الحال هو العامل في ذي الحال، والعامل في «مِنَ اللَّيْلِ» هو الاستقرار «وَأَغْشَيْتَ» عامل في قوله: «قَطَعًا» الموصوف بقوله: «مِنَ اللَّيْلِ» فاختلفا، فلذلك كان الوجه الأخير قطعاً مستقرة من الليل أو كائنة من الليل في حال إظلامه. قُلْتُ: ولا يَغْنِي الزمخشري بقوله: إنّ العامل «أَغْشَيْتَ» إلا أنّ الموصوف وهو قَطَعًا معمول لـ «أَغْشَيْتَ»، والعامل في الموصوف هو عامل في الصفة، والصفة هي «مِنَ اللَّيْلِ» فهي معمول لـ «أَغْشَيْتَ»، وهي صاحبة الحال، والعامل في الحال هو العامل في ذي الحال فجاء من ذلك أن العامل في الحال هو العامل في صاحبها بهذه الطريقة، ويجوز أن يكون «قَطَعًا» جمع: قِطْعَةٌ أي: اسم جنس فيجوز حينئذٍ وصفه بالتذكير نحو «نُحِلُّ مُتَّقِعِرًا»، والتأنيث نحو: «نُحِلُّ حَاوِيَةً»، وأما قراءة الباقيين فقال مكي وغيره: «إن مُظْلِمًا». حال من «اللَّيْلِ» فقط، ولا يجوز أن يكون صفة لـ «قَطَعًا» ولا حالاً منه، ولا من الضمير في «مِنَ اللَّيْلِ»، لأنه كان يجب أن يُقَالَ فيه: مُظْلِمَةٌ قُلْتُ: يعنون أن الموصوف حينئذٍ جمع، وكذا صاحب الحال، فتجب المطابقة، وأجاز بعضهم ما منعه هؤلاء وقالوا: جاز ذلك، لأنه في معنى الكثير، وهذا فيه تعسف، وقرأ أبي: «تَغَشَّى وَجُوهَهُمْ قِطْعٌ» بالرفع «مُظْلِمٌ» وقرأ ابن أبي عبله كذلك، إلا أنه فتح الطاء وإذا جعلت «مُظْلِمًا» نعتاً لـ «قَطَعًا» فتكون قد قدمت النعت غير الصريح على الصريح، قال ابن عطية: فإذا كان نعتاً يعني: «مُظْلِمًا» نعتاً لـ «قَطَعٌ» فكان حقه أن يكون قبل الجملة، ولكن قد يجيء بعد هذا وتقدير الجملة: قطعاً استقر من الليل مظلماً على نحو قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مِائِرًا﴾. انتهى. الدر المصون.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وتقديره له بـ «الزموا» ليس بجيد، إذ لو كان كذلك لتعدى كما يتعدى ما ناب هذا عنه، فإنّ اسم الفعل يعامل معاملة مسماه، ولذلك لما قدروا «عَلَيْكَ» بمعنى: الزم عدوه تعديته نحو: «عَلَيْكَ زَيْدًا» وعند الحوفي: «مَكَانَكُمْ» نصب بإضمار فعل، أي: «الزموا مكانكم أو اثبتوا». قُلْتُ: فالزمخشري قد سبق بهذا التفسير، والعذر لمن فسره بذلك أنه قصد تفسير المعنى، وكذلك فسره أبو البقاء فقال: «مَكَانَكُمْ» ظرف مبني لوقوعه موقع الأمر، أي: «الزموا». وهذا الذي ذكره من كونه مبنيًا فيه خلاف للنحويين منهم من ذهب إلى ما ذكر، ومنهم من ذهب إلى أنها حركة إعراب، وهذان الوجهان مبنيان على خلاف في أسماء الأفعال هل لها محل من الإعراب أو لا؟ فإن قُلْنَا: لها محل كانت حركات الظرف حركات إعراب، وإن قُلْنَا لا موضع لها كانت حركات بناء، انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله: «أقرانهم» مفردة «قرن» بالتحريك وهو جبل يقرن به البعيران، كما في الصحاح. قوله: «والوصل» مفردة «وصلة» أي اتصال وذريعة، كما في الصحاح أيضاً (ع).

كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٦﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴿﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤]. وقرىء: فزابلنا بينهم؛ كقولك: صاعر خذه وصعره، وكالمته وكلمته، ﴿مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَعْبُدُونَ﴾: إنما كنتم تعبدون الشياطين؛ حيث أمروكم أن تتخذوا لله أنداداً فأطعتموهم.

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنْ كُنَّا﴾: هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وهم: الملائكة، والمسيح، ومن عبده من دون الله من أولي العقل، وقيل: الأصنام ينطقها الله - عز وجل - تشافهم بذلك مكان الشفاعة التي زعموها وعلقوا بها أطماعهم، ﴿هُنَالِكَ﴾: في ذلك المقام وفي ذلك الموقف، أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان، ﴿تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ﴾: تختبر وتذوق، ﴿مِمَّا أَسْلَفَتْ﴾: من العمل فتعرف كيف هو، أقبیح أم حسن؛ أنافع أم ضار، أمقبول أم مردود؟ كما يختبر الرجل الشيء ويتعرفه ليكتنه حاله؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَىٰ التَّوَابِرُ ﴿١﴾﴾ [الطارق: ٩]، وعن عاصم: «تبلو كل نفس»، بالتون ونصب كل، أي نختبرها باختبار ما أسلفت من العمل، فنعرف حالها بمعرفة حال عملها؛ إن كان حسناً فهي سعيدة، وإن كان سيئاً فهي شقية، والمعنى: نفعل بها فعل الخابرة؛ كقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَنْكُمُ أَحْسَنُ عَدْلًا﴾ [الملك: ٢]، ويجوز أن يراد نصيب بالبلاء، وهو العذاب: كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر، وقرىء: «تتلو»، أي: تتبع ما أسلفت؛ لأن عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة أو إلى طريق النار، أو تقرأ في صحيفتها ما قدمت من خير أو شر، ﴿مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ﴾: ربهم الصادق ربوبيته؛ لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة، أو: الذي يتولى حسابهم وثوابهم، العدل الذي لا يظلم أحداً، وقرىء: «الحق»، بالفتح على تأكيد قوله: ﴿رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾؛ كقولك: هذا عبد الله الحق لا الباطل، أو على المدح؛ كقولك: الحمد لله أهل الحمد، ﴿وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: وضاع عنهم ما كانوا يدعون أنهم شركاء الله، أو بطل عنهم ما كانوا يخلقون من الكذب وشفاعة الآلهة.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَسْتَعِزَّ بِأَيْدِيهِمْ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ تَمَّادًا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنَّ يَصْرُوفُ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: يرزقكم منهما جميعاً^(١)، لم يقتصر برزقكم على جهة واحدة ليفينس عليكم نعمته ويوسع رحمته، ﴿أَمَّنْ يَمَلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾: من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويها عليه من الفطرة العجيبة، أو من يحميها ويحصنهما من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال، وهما لطيفان يؤذيها أدنى شيء بكلاءته وحفظه، ﴿وَمَنْ يُدْرِ الْأُمُرَ﴾: ومن يلي تدبير أمر العالم كله، جاء بالعموم بعد الخصوص، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أفلا تقون أنفسكم ولا تحذرون عليها عقابه/ ٣١٥ب فيما أنتم بصدده من الضلال، ﴿فَذَلِكُمْ﴾: إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله، ﴿رَبِّكُمْ الْحَقُّ﴾ الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقق النظر، ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ يعني: أن الحق والضلال، لا واسطة بينهما؛ فمن تخطى الحق، وقع في الضلال، ﴿فَأَنْتُمْ مَصْرُوفُونَ﴾: عن الحق إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك، وعن السعادة إلى الشقاء، ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل ذلك الحق، ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق؛ فكذلك حقت كلمة ربك، ﴿عَلَّ الَّذِينَ فَسَقُوا﴾: أي: تمردوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه، و﴿أَنْتُمْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾: بدل من الكلمة، أي: حق عليهم انتفاء الإيمان، وعلم الله منهم ذلك، أو حق عليهم كلمة الله أنهم من أهل الخذلان، وأن إيمانهم غير كائن، أو: أراد بالكلمة: العدة بالعذاب، وأنهم لا يؤمنون تليلاً، بمعنى: لأنهم لا يؤمنون.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٢﴾
قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ
أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَأَلَكُمُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

فإن قلت: كيف قيل لهم: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، وهم غير معترفين بالإعادة؟

قلت: قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن رفعه دافع كان مكابراً؛ وإذا للظاهر البين، الذي لا مدخل للشبهة فيه؛ دلالة على أنهم في إنكارهم لها منكرون أمراً مسلماً معترفاً بصحته عند العقلاء، وقال لبيبة - رضي الله عنها - : ﴿قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾،

(١) قال محمود: «معناه أي من يرزقكم منهما جميعاً... إلخ» قال أحمد: وهذه الآية كافية لوجوه القدرية الزاعمين أن الأرزاق منقسمة، فمنها ما رزقه الله للعبد وهو الحلال، ومنها ما رزقه العبد لنفسه وهو الحرام وهذه الآية ناعية عليهم هذا الشرك الخفي لو سمعوا ﴿أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾.

فأمره بأن ينوب عنهم في الجواب، يعني: أنه لا يدعهم لجاجهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلم عنهم، يقال: هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين، ويقال: هدى بنفسه بمعنى: اهتدى، كما يقال: شرى بمعنى: اشتري؛ ومنه قوله: ﴿أَتَىٰ لَا يَهْدِي﴾^(١)، وقرىء: «لا يهْدِي» بفتح الهاء وكسرها مع تشديد الدال، والأصل: «يهتدي»، فأدغم، وفتحت الهاء بحركة التاء، أو كسرت؛ لالتقاء الساكنين، وقد كسرت الياء؛ لاتباع ما بعدها، وقرىء: «إلا أن يهدي» من هداه وهذاه للمبالغة، ومنه قولهم: تهدي، ومعناه: أن الله وحده هو الذي يهدي للحق، بما ركب في المكلفين من العقول، وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم، وبما لطف بهم، ووقفهم، وألهمهم؛ وأخطر ببالهم، ووقفهم على الشرائع؛ فهل من شركائكم الذين جعلتم أندادا لله أحد من أشرفهم ك «الملائكة، والمسيح، وعزير»، يهدي إلى الحق مثل هداية الله، ثم قال: أفمن يهدي إلى الحق هذه الهداية أحق بالاتباع، أم الذي لا يهدي، أي: لا يهتدي بنفسه، أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله، وقيل: معناه: أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه، ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾: إلا أن ينقل، أو لا يهتدي ولا يصح منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً فيهديه، ﴿فَأَلْكَرُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾: بالباطل؛ حيث تزعمون/ ٣١٦ أ أنهم أندادا لله.

﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(٣٦)

﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ﴾: في إقرارهم بالله، ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾؛ لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم، ﴿إِنَّ الظَّنَّ﴾: في معرفة الله، ﴿لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾: وهو العلم، ﴿شَيْئًا﴾، وقيل: وما يتبع أكثرهم في قولهم للأصنام أنها آلهة، وأنها شفعاء عند الله إلا الظن، والمراد بالأكثر: الجميع، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾: وعيد على ما يفعلون من اتباع الظن وتقليد الآباء، وقرىء: «تفعلون»، بالتاء.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ

(١) قوله ﴿أَتَىٰ لَا يَهْدِي﴾ من قولهم: هدى بنفسه. أم من لا يهدي، كيرمي. وقوله: بفتح الهاء... الخ: بقية القراءة بكسرها مع التشديد، وقد أشار إليها بقوله: «أو كسرت» والقراءة كيرمي لحمزة وعلي. وبالفصح مع التشديد للمكي والشامي. وبالكسر مع لعاصم. والأصل: يهتدي. وهي قراءة عبد الله، أفاده النسفي (ع).

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا
يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٣٧﴾

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ : افتراء، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ﴾ : كان ﴿تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ،
وهو : ما تقدمه من الكتب المنزلة ؛ لأنه معجز دونها فهو عيار عليها وشاهد لصحتها ؛
كقوله تعالى : ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر : ٣١] ، قرىء : «ولكن تصديق الذي بين
يديه وتفصيل الكتاب» ، على : ولكن هو تصديق وتفصيل ، ومعنى : ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ
يُفْتَرَى﴾ : وما صح وما استقام ، وكان محالاً أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى
﴿وتفصيل الكتاب﴾ : وتبين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع ، من قوله : ﴿كُتِبَ اللَّهُ
عَلَيْكُمْ﴾ [النساء : ٢٤] .

فإن قلت : بم اتصل قوله : ﴿لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ؟

قلت : هو داخل في حيز الاستدراك ؛ كأنه قال : ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً منتفياً عنه
الربيب كائناً من رب العالمين ، ويجوز أن يراد : ولكن كان تصديقاً من رب العالمين ،
وتفصيلاً منه لا ريب في ذلك ، فيكون : (من رب العالمين) : متعلقاً بتصديق وتفصيل ، أو
يكون : (لا ريب فيه) : اعتراضاً ، كما تقول : زيد لا شك فيه كريم ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَاهُ﴾ :
بل أيقولون اختلقه ، على أن الهمزة تقرير لإلزام الحجة عليهم ، أو إنكار لقولهم واستبعاد ،
والمعنيان متقاربان ﴿قُلْ﴾ : إن كان الأمر كما تزعمون ، ﴿فَأْتُوا﴾ : أنتم على وجه الافتراء ،
﴿بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ : فأنتم مثلي في العربية والفصاحة ، ومعنى : (بسورة مثله) أي : شبيهة به
في البلاغة وحسن النظم ، وقرىء : «بسورة مثله» ، على الإضافة ، أي : بسورة كتاب مثله ،
﴿وَادْعُوا﴾ : من دون الله ، ﴿مَنْ اسْتَظَمَّهُ﴾ : من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله ،
يعني : أن الله وحده هو القادر على أن يأتي بمثله لا يقدر على ذلك أحد غيره ، فلا
تستعينوه وحده ، ثم استعينوا بكل من دونه ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مَدَّيْنٍ﴾ : أنه افتراء ، ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ :
بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن ، وفاجؤوه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ، ويعلموا كنه
أمره ، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه ؛ وذلك لفرط نفورهم عما يخالف
دينهم ؛ وشراهم عن مفارقة دين آبائهم ، كالناشئ على التقليد من الحشوية ، إذا أحس
بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه - وإن كانت أضوا من الشمس في ظهور الصحة وبيان
الاستقامة - أنكرها ما في أول وهلة ، / ٣١٦ ب واشماز منها قبل أن يحس إدراكها بحاسة
سمعه من غير فكر في صحة أو فساد ؛ لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه وفساد ما عداه
من المذاهب .

فإن قلت : ما معنى التوقع في قوله : ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلَهُ﴾ ؟

قلت: معناه: أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل^(١)؛ تقليدا للآباء، وكذبوه بعد التدبر؛ تمرداً وعناداً، فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقع؛ ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه، وإعجازه لما كثر عليهم التحدي، ورازوا قواهم^(٢) في المعارضة واستيقنوا عجزهم عن مثله، فكذبوا به بغياً وحسداً، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك التكذيب، ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: قبل النظر في معجزات الأنبياء، وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم، ولكن قلدوا الآباء وعاندوا، وقيل: هو في الذين كذبوا وهم شاكون، ويجوز أن يكون معنى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾: ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب، أي: عاقبته، حتى يتبين لهم أنه كذب أم صدق، يعني: أنه كتاب معجز من جهتين: من جهة إعجاز نظمه، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب، فترسّعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز، وقبل أن يخبروا أخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾: يصدق به في نفسه، ويعلم أنه حق، ولكنه يعاند بالتكذيب، ومنهم: من يشك فيه لا يصدق به، أو يكون للاستقبال، أي: ومنهم من سيؤمن به ومنهم من سيصمر، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾: بالمعاندين، أو المصيرين.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا

تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾: وإن تموا على تكذيبك^(٣)، ونست من إجابتهم، فبرأ منهم وخلصهم فقد أعذرت؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَاكَ فَقُلْ إِنَّي بَرِيءٌ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ أَلْسِنَهُمْ وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ
إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾^(٤): معناه: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن،

- (١) قال محمود: «معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل... إلخ» قال أحمد: وكان التكذيب قبل الإحاطة بعلمه ربما يورهم عذراً ما للمكذب، فجاءت كلمة لما مشعرة بأنهم قد أحاطوا بعلمه حتى تنحسم أذارهم ويتحقق شفاؤهم، والله أعلم.
- (٢) قوله: «ورازوا قواهم» أي جربوها وخبروها. أفاده الصحاح (ع).
- (٣) قوله: «وإن تموا على تكذيبك» أي مضوا عليه ولم يرجعوا عنه. أفاده الصحاح (ع).
- (٤) يقول - سبحانه - ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾... نقول: هذا الأسلوب وهو حديث الاستفهام من

وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون، وناس ينظرون إليك، ويعاينون أدلة

= أقوى الأساليب الإنشائية الواردة في القرآن الحكيم، ولذا وجب في هذه التعليقات أن نحدد مسارات تكون منارات للمساكين، وإرشادات للباحثين، فنقول وبالله التوفيق:

١ - تعريف الاستفهام عند اللغويين: هو طلب الفهم، أي معرفتك الشيء بالقلب، أو فهمه الأمر، وفهمه إياه، وجعله يفهمه، واستفهمه: سأله أن يفهمه، وقد استفهمني الشيء فافهمته، وفهمته تفهيماً. «وهذا كله من لسان العرب ونحوه مادة: فهم».

وأما في الاصطلاح فكما قال السعد في مطوله: «وهو طلب حصول صورة الشيء في الذهن، فإن كانت تلك الصورة وقوع النسبة بين الشئين أو لا وقوعها فحصولها هو التصديق، وإلا فهو التصور».

وبالمقارنة بين المعنيين نلاحظ اتصالاً وثيقاً.

وقد وزع البلاغيون الأدوات على النحو التالي:

١ - ما يكون للتصور والتصديق وهو «الهمزة» وحدها.

٢ - ما يكون للتصديق فقط وهو «هل» وحدها.

٣ - ما يكون للتصور فقط وهو «تسع أدوات على التوالي: من، ما، أي، كم، متى، أين، أنى، أيان، كيف».

وسنذكر المعاني الواردة في القرآن الكريم بهذه الأدوات مع ملاحظة أن الاستفهام الحقيقي لم يقع إلا حكاية عن العباد، وأما ما ورد عن الله مباشرة فله معانٍ تستطيع أن تكشف عنها بطريق المقام، ورعاية مدارج الأماليب، وسأضع لهذه المعاني رؤوساً تكون باباً يلج منه الدارسون، والباحثون.

٢ - المعنى الحقيقي: وقد رأينا هذا المعنى مع «هل» في قوله - تعالى -:

﴿إِذْ قَالَ الْهَوَارِيُّونَ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُولُونَ لِلَّهِ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: ١١٢].

فهذا الاستفهام تراه على طريق طلب الفهم وهو المعنى الاصطلاحي لأنه حكاية - عن الحوارين وما أرادوه من نبيهم عيسى ابن مريم عليهما السلام.

وفي الآية كلام طويل وأخذ ورد، ولكل وجهة هو موليها، ومن أراد الغاية فعليه بأسفار العلوم في البلاغة والتفسير، وهالك بعضها:

«المطول للسعد ٢٢٦، الإيضاح للقرظيني بتحقيق خفاجي عليه ٥٨/٣، وعقود الجمان في المعاني والبيان للسيوطي مع شرح المرشدي عليه ١٧٤/١، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٣/٣٠٠، والفتوحات الإلهية للجمل على الجلالين ١/٥٤٢، وحاشية الصاوي على الجلالين ١/٢٧٤، وفتح التقدير للشوكاني ٤/١٧، وتفسير أبي السعود ٢/٤٩٧ وما بعدها».

٣ - المعاني المجازية تتوالد هذه المعاني مفرعة على المعنى الحقيقي بمعونة المقام، وقرائن الأحوال، ومتبعات التراكيب يقول السكاكي - رحمه الله - تعالى -: واعلم أن هذه الكلمات كثيراً ما يتولد منها أمثال ما سبق - أي من كلامه - بمعونة قرائن الأحوال، فيقال: ما هنا؟، ومن هذا؟ المجرد الاستخفاف والتحقير، وما لي؟ للتعجب وسأحاول بقدر جهدي أن أفق مع هذه المعاني على النحو التالي:

التقدير وهو: حمل المخاطب على الإقرار والإذعان بمضمون الجملة والجائه إلى ذلك وهذا تحديد السعد، وهو التعريف اللغوي - أيضاً -.

وبأتي هذا المعنى مع: الهمزة، هل، من، ما، أي، كيف والأمثلة على التوالي: يقول - سبحانه - =

وقع في صمائه دوي الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعاً فقد تم الأمر،

= ﴿وَقُولُوا مَن هَذَا الّوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨] ومقام الآية للإنكار، لأن الغائلين هم الكفار الذين إذا هددهم رسول الله ﷺ ينزول العذاب يقولون: متى هذا الوعد؟ إنكاراً واستبعاداً وقدحاً في نبوة النبي - صلوات الله وسلامه عليه -.

وفي هذا الاستفهام مع ما سبق: استعجال للعبيد، واستهزاء بهم، وقيل إنه على سبيل التوكيد لرسول الله - صلوات الله وسلامه عليه -.

وخلاصة هذا كله: إن الاستفهام يفيد الإنكار ولا مانع من تحمل معاني أخرى تنبع من المقام وتدور في فلك الإنكار، ومن يراجع الاستفهام في كتاب الله مع الغوص في بحار معانيه يؤتيه الله - سبحانه - فتحاً عجيباً.

ينظر فتح القدير ١٥٦/٢، ٤٥١، ٥٩/١، ٤٤٩/٢، ٤٤١/١، والنسفي ٣٠/٢، ٣١، ٣٨/١، وحاشية الشهاب على البيضاوي ١١٩/٤، وروح المعاني للألوسي ١٤/٨، ١٢٩/١٠، ١٣١ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٥٩٣/٤، والبحر المحیط لأبي حيان ٢١١/٤ ومفاتيح الغيب للرازي ٣٧٦/٨.

التوبيخ والتهكم:

يقال: ويخ فلان فلاناً: هدده ولامه وأنه كما يفهم من اللغة وهو المقصود بلاغة ويقال: تهكم به: استهزأ به، وبهذا يكون التوبيخ والتهكم متقاربين في المعنى، ولهذا نرى التعبير بهما في المباحث البلاغية فيقال - كما هو عند المفسرين، هذا توبيخ لهم وتهكم بهم. وهذا المعنى ينتشر في القرآن الكريم انتشاراً واسعاً حتى رأى المفسرون أنه أوسع المعاني انتشاراً في أساليب الإنشاء؛ ذلك أنه يعالج النفوس المريضة، ويهذب الطباع الغليظة وهذا ما يناسب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد استعمل في هذا المقصود مجموعة من أدوات الاستفهام، ودخل فيه من أساليب الإنشاء الأخرى الأمر، والنهي، والنداء.

أما أدوات الاستفهام التي استعملت للتوبيخ والتهكم فهناك عن التوالي بعد الهمزة: هل، من، ما، كم، كيف، متى، أين، أيا. فلم يسقط من أدوات الاستفهام إلا «أنى» التي معناها: كيف أو من أين، فقد سقطت لفظاً لا معنى، وهذا المفهوم في هذا المعنى يفيد أن هذا المقصد له تأثيره التام على النفوس وطب القلوب في كثير من المقامات.

هذا، ونظراً لاتساع هذا البحث سأورد مثلاً من كثير من الآيات لكل أداة على الترتيب السابق. فالتوبيخ بالهمزة لقوله - تعالى -: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَكُنَّ أَقْلًا تَقُولُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] وقد بين العلماء في الآية أن الاستفهام للتوبيخ ومعه التعجب والإنكار، والتقريب مع المبالغة وإن كان الباحث يرى التقرير غير ظاهر خلافاً لبنية المعاني التي يتسع لها المقام والكلام. وقد يأتي مع التوبيخ التعجيز كقوله - سبحانه -:

﴿أَرَأَيْتُمْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [ص: ١٠] ففي الحديث معهم توبيخ على ما يقولون وتمجيز لهم بما طلب منهم ولا يستطيعون.

أما التوبيخ بهل فتراه في قول الله - سبحانه -:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْغَنَاءُ وَالْبُسْرُ وَالْأَسَابُ وَالْأَذَانُ وَمَنْ يَنْصُرْ يَنْصُرْ لِنَفْسِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يُؤْتِي مَنْ يَشَاءُ لِيُغْنِيَ عَنْكُمْ اللَّهُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النساء: ١١] ﴿يُرِيدُ أَنْ يُنْفِثَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ عَنْ رَجُلٍ مِنَ آلِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ مِنَ الْبَاقِرِينَ فَتَعَلَّى حَصْبًا وَأَعْيَانًا مِّنْهُمْ وَتَوَلَّى يَدَاؤُهُمْ فَلَمَّ إِذْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى الْإِسْبَابِ﴾ [الأنعام: ١١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْغَنَاءُ وَالْبُسْرُ وَالْأَسَابُ وَالْأَذَانُ وَمَنْ يَنْصُرْ يَنْصُرْ لِنَفْسِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يُؤْتِي مَنْ يَشَاءُ لِيُغْنِيَ عَنْكُمْ اللَّهُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النساء: ١١]

[المائدة: ٩٠ - ٩١] فقوله - جلست حكمته - «فهل أنتم منتهون» يفيد الزجر البالغ بالاستفهام ليس =

البصيرة؛ لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدث

= فهذا الاستفهام «بكم» الاستفهامية تفيد: التقرع والتوبيخ مع التقرير، ويصح أن تكون خبرية لإفادة التكثير في الآيات فإذا لم يؤمنوا مع كثرتها كان ذلك دليلاً على شدة كفرهم، وهذا توبيخ لهم - أيضاً - من هذا السبيل.

«ينظر فتح القدير ١٤/٥، ١٤٨/١، ١١٣، ٤٤٥/٢، ٢٧٢/٢، ١١٧/٥، ٢١٢/١، والنسفي ٤/١٤٠، ٨٨/٢، ١٠٥/١، ومفاتيح الغيب للرازي ١٤/١٩٥، ٣٨٣/٧، ٢٦١/٣، ٢٦٢، روح المعاني للألوسي ١/٢٣٤، ٣٢٥، ١٢٩/٩، ٩٩/٢، حاشية الشهاب ٢/٢٠٥، والجامع لأحكام القرآن ١/٥٢٨، والبحر المحيط لأبي حيان ٢/١٢٦.

ويأتي التوبيخ بكيفية كقوله - تعالى -:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَيَّ هَذَا شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١] والتوبيخ للكفار لأنه في يوم القيامة لا يجد هؤلاء شهيداً لهم مع وجود شهداء للمؤمنين، ولهذا المعنى بكى رسول الله ﷺ حينما سمع الآية من سيدنا عبد الله بن مسعود وقد بحث المفسرون بذوقهم هذا الاستفهام، ولكل وجهة، وجملة ما حصلته منهم أن هذا الاستفهام بمعونة المقام يفيد: التوبيخ، والتفخيم، والتوهيل، والتبشير لرسول الله - صلوات الله عليه وسلامه - كما أن فيه وعداً للمؤمنين، ووعيداً للكافرين.

ويأتي التوبيخ بعتى الاستفهامية كقوله - سبحانه -:

﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرِثًا أَوْنَا لَمَعُونًا عَلَفًا جَدِيدًا ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ قُلْ كُونُوا حِمَامًا أَوْ حَيْبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٠، ٥١، ٥٢] وهو استهزاء منهم وسخرية، وفيه إنكار وتمجيب واستبعاد، ولكل مقام معنى يناسبه.

ونرى هذا المعنى مع «أين» كقوله - تعالى -:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيمًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنعام: ٢٢] ووجه التوبيخ أن معبوداتهم غابت عنهم في تلك الحال أو حاضرة ولكنهم لا ينتفعون بها فوجودها كالعدم. وقد لمح الزمخشري في الآية معنى التحشير لأن المقام فيه خزي لهم، وهذا التحشير يتولد من التوبيخ، وبهذا يفيد الاستفهام: التوبيخ ويدور معه التحشير.

ويأتي هذا المغزي مع «أيان» في قوله - تعالى -:

﴿قِيلَ الْمُرْضُوعُونَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍو سَاهُونَ ﴿١٧﴾ يَنْظُرُونَ أَنَّى يَأْتِيهِمُ الْيَوْمَ مَا كَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات ١٠، ١١، ١٢] فهذا الاستفهام للاستهزاء والتكذيب ومن أراد المزيد فعليه بمراجعة المصنفات الباحثة في معاني القرآن ككتب التفسير والبلاغة خصوصاً التي تعنى باستخراج درر كتاب الله الحكيم ومن أهمها هذه المراجع:

«فتح القدير للشوكاني ١/٤٦٧، ٣/٨٤، ٨٥، ١٠٧/٢، ٨٤/٥، وينظر روح المعاني للألوسي فيه كفاية وغناء ٥/٣٣، ٣٤، ٩٢/١٥، ١٢١/٧، ١٢٢، والنسفي ١/٢٢٦، ٣١٧/٢، ٧/٢، وسنن الترمذي مراجعة: عبد الرحمن عثمان ٤/٣٠٤، ٣٠٥، وفيه أبواب تفسير القرآن. ومفاتيح الغيب للرازي ٥/٢١٧، ١١/١٠، ١٢، ٢٥٧/٦، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/١٨٦٣، ١٨٦٣، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٤/٣٩، والإيضاح للقرظيني مع حواشي ٣/٧٣ وما بعدها، والمطول للسعد ٢٣٥ وما بعدها، ومفتاح العلوم للسكاكي ١٥٠ وما بعدها، والبلاغة القرآنية لمحمد أبي موسى ٣٥٦ وما بعدها، وعقود الجمان في المعاني والبيان للسيوطي متنأ وشرحاً ومعه شرح المرشدي ١/١٨٥ وما بعدها.

= التفخيم: أي تفخيم المستفهم عنه كذا جاء قوله - تعالى - ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾﴾ [النبا: ١] والمعنى

= فيه: عن أي شيء يتساءلون؟ أي هو أمر عظيم له حظره، وقد بين المفسر هذا شافياً.

الاستيعاد: وهذا ما لمحّه المفسرون في قوله - سبحانه - حكاية عن زوجة نبي الله إبراهيم - عليه السلام - إذ قالت: ﴿يَتَوَلَّىٰ أَيْدِيَنَا وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] وهو استيعاد من جهة العادة التي طبع الله الناس عليها، ولهذا أنكرت الملائكة عليها. تعجبها «أتعجبين من أمر الله».

المبالغة في طلب الفعل والحض عليه: وقد أورد هذا المعنى الزمخشري عند قوله - تعالى - ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ وقد بينت ما في الآية آنفاً.

التعمير: وهذا ما ورد في قوله - تعالى - ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهَنَّمِ يَتَّبِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] لأنهم أهل كتاب وعلم فكيف يبتغون هذا الحكم؟.

التعجب: وهذا ما يلح في قوله - سبحانه - ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعِنْدَهُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣] لأنه قد أوضح الله لهم الحكم في التوراة فكيف يبتغون تحكيمك؟ إفادة إن المستفهم عن أمره مشهور ذائع كما في قوله - تعالى - ﴿وَقُلْ أَنتَكَ نَبِيُّ الْحَقِّمِ﴾ [ص: ٢١] وفيه تشويق إلى سماع هذا النبأ.

الاستبطاء: وهذا ما لمحّه العلماء في قوله - تعالى - حكاية - عن اجتماع سحرة فرعون والناس معهم ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ [٢٦] لَمَّا نَلَّحُ النَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْقَلِيلِينَ ﴿٢٥﴾ [الشعراء: ٣٩، ٤٠] فهذا الاستفهام فيه استبطاء لهم في الاجتماع، والمراد منه استعجالهم وحثهم على المسارعة.

لفت المسؤول إلى المسؤول ليشبهه تمهيداً للإحداث أمر عظيم فيه كما في قوله - سبحانه - لنبية موسى - عليه السلام - ﴿وَمَا تِلْكَ بِسْمِئِكَ يَمْوَسَىٰ﴾ [طه: ١٧] فالقصد إلى بيان عظمة المولى - عز وجل - في هذه العصا وهي خشبة يابسة من قلبها حية بقدرته جل وعلا -، وهذا ما يفعله السحرة، لكن شتان بين قدرة القادر، وفعل الساحر العاجز. وهناك معانٍ أخرى في حاجة إلى فحص كلام المولى في مقاماته المختلفة، ومن أراد المراجعة فعليه بالمصنفات التي جمعت الاستفهام في القرآن الكريم، وفي ذلك رسائل جامعية في جامعة الأزهر وسواها.

وبعد أن بينت بعض المعاني المجازية أقول: هل أشار الزمخشري إلى وجه تحصيل هذه المعاني من أدوات الاستفهام؟ وكيف دلت هذه الأدوات عليها؟ بطريق الحقيقة أم بالمجاز أم بطريق أنها من مستتبعات التراكيب؟

والحقيقة أننا لا نجد جواباً شافياً عند الزمخشري، وقد تعسف المتأخرون في العلاقات بين الاستفهام بأداته والمعنى المراد كما بيناه.

والعلامة الزمخشري كان دائماً يقصد إلى المعنى المراد ولا يلتفت إلى وجه الاستعمال.

«يراجع البلاغة القرآنية د. محمد أبو موسى ٣٥٦ وما بعدها» كما تنظر المراجع السابقة بصفحاتها. هذا ما كان من أمر الاستفهام في معناه الحقيقي وما يرمز إليه من معانٍ مجازية جاءت من طبيعة المقام ومستتبعات التراكيب، وفيما سردته إشارة لما أراد الغاية والهداية، وفي المراجعات فوائد ومهمات، أما جواب الاستفهام فقد ركزه العلامة أبو موسى في مصنفه البلاغة القرآنية بصورة لطيفة موجزة مغنية، وخلاصة ذلك في النقاط الآتية:

١ - يأتي الجواب غير مباشر لملاحظة دقيقة كالزيادة والتعميم عما يتطلبه السؤال في مقام الابتهاج والافتخار، وهذا ما لحظه الزمخشري عند قوله - سبحانه -:

﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا قَبُوءُ أَصْنَانًا فَظَلُّوا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٠، ٧١] وكان

يكفي في الجواب: أصناماً كما جاء الجواب في قوله - تعالى -:

ويتظن^(١)، وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء، يعني: أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا، كالصم والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول، وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ... أَفَأَنْتَ﴾^(٢): دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله - عز وجل - بالقسر والإلجاء، كما لا يقدر على رد الأصم والأعمى المسلوب العقل حديدي السمع والبصر راجحي العقل، إلا هو وحده.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٣)

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقصهم شيئاً مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال / ١٣١٧ الكتب، ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب؛ ويجوز: أن يكون وعيداً للمكذبين، يعني: أن ما يلحقهم يوم القيامة من العذاب لاحق بهم على سبيل العدل والاستيجاب، ولا يظلمهم الله به، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف ما كان سبباً فيه.

﴿وَيَقُولُوكَ مَاذَا يُعْقِبُ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] ولكن المولى القدير الخبير أتى بما تكنه صدورهم وعبرت عنهم أفواههم.

٢ - وقد يأتي الجواب مؤكداً على أحد معاني السؤال تاركاً سواء كما في قوله - تعالى -:

﴿وَمَا أَعْجَلَكُ عَنْ قَوْلِكَ يُسَوِّئُ ۖ قَالَ ثُمَّ أُولَآئِكَ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٣،

٨٤] فالسؤال عن سبب العجلة وجوابه بنحو، طلب زيادة.

رضاك - مثلاً -، ولكن الجواب جاء بهذا النظم لبيان العذر والعللة، وأنه لم يوجد منه تقدم كبير وإنما هو كتقدم رأس الوفد، ثم جاء جواب السؤال ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾.

٣ - وقد يكون في الجواب تهديد لينطبق على ما في السؤال من إنكار، ويلحظ هذا في قوله - سبحانه - ﴿وَيَقُولُوكَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤) **قُلْ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ** ﴿[سبأ: ٢٩، ٣٠] فهم منكرون البعث متهمون بقولهم هذا، فلا أن يكون الجواب قويا واقعاً لباطلهم.

٤ - وقد يكون الجواب غير ما في السؤال، لأن السؤال عن شيء واضح مشهور، ثم ينسب على هذا الجواب كلام يوجهه المقام، ولهذا يكون ذكر الكلام بهذا الطريق تأكيد لجواب السؤال وتقرير له ويتضح هذا في قوله - تعالى -:

﴿أَتَسْمِعُونَ أَنكَ سَكِيلًا مَّرْسَلًا مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلُوا بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥]

والجواب العادي لهذا السؤال: مرسل، ولكنهم جعلوا هذا الجواب معلوماً لا يحتاج إلى بيان وإنما الكلام الذي يجب أن يعلموه هو: إنا آمننا به، ولهذا جاء جواب الكثرة عليهم «إنا بالذي آمنت به كافرين» فوضعوا «آمنت به» موضع «أرسل به» لأنهم حولوا البيان إلى ما يجب.

هذا ما كان من أمر الجواب للسؤال القرآني وأسراره، والمدقق يلاحظ أنماطاً بلاغية عجيبة؛ لأن الذي نظم آيات القرآن هو العليم بأسرار النفوس، الخبير بما تنطوي عليه الصدور، ونحن بتوفيق الله لنا نصل إلى بعض هذه المعاني، فالقرآن لا تنتهي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الترداد، وصدق رب العالمين إذ يقول فينا:

﴿وَمَا أُرْسِلُكَ مِنَ الْغَايِبِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]

«يراجع البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري د. محمد أبو موسى ٣٦٦ وما بعدها».

(١) قوله: «ويتظن» أي يعمل ظنه. أفاده الصحاح (ع).

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَرُبِّهِمْ شَأْنُ السَّاعَةِ مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ
وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾: يستقربون وقت لبثهم في الدنيا، وقيل: في القبور؛ لهول ما يرون، ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾: يعرف بعضهم بعضاً، كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً؛ وذلك عند خروجهم من القبور ثم يقطع التعارف بينهم؛ لشدة الأمر عليهم.

فإن قلت: (كان لم يلبثوا)، و(يتعارفون)، كيف موقعهما؟

قلت أما الأولى: فحال من «هم»، أي: يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة، وأما الثانية: فإما أن تتعلق بالظرف، وإما أن تكون مبينة؛ لقوله: «كان لم يلبثوا إلا ساعة»؛ لأن التعارف لا يبقى مع طول العهد وينقلب تناكراً ﴿قَدْ خَسِرَ﴾: على إرادة القول، أي: يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هي شهادة من الله - تعالى - على خسرانهم، والمعنى: أنهم وضعوا في تجارتهم^(١) وبيعهم الإيمان بالكفر، ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: للتجارة عارفين بها، وهو استئناف فيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أخسرهم!

﴿وَأِمَّا زَيْنَبُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعَدْتُمْ أَوْ نَوْفَتِكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿إِنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾: جواب توفيتك، وجواب زينك محذوف، كأنه قيل: وإما زينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك، أو توفيتك قبل أن نريكه فنحن نريكه في الآخرة.

فإن قلت: الله شهيد على ما يفعلون في الدارين، فما معنى ثم؟

قلت: ذكرت الشهادة، والمراد: مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب، كأنه قال: ثم الله معاقب على ما يفعلون، وقرأ ابن أبي عملة: «ثم»، بالفتح، أي: هنالك، ويجوز أن يراد: أن الله مؤدّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة؛ حين ينطق جلودهم، وألسنتهم، وأيديهم، وأرجلهم، شاهدة عليهم.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾: يعث إليهم؛ لينبهم على التوحيد، ويدعوهم إلى دين الحق، ﴿فَإِذَا جَاءَ﴾: هم ﴿رَسُولُهُمْ﴾: بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه، ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: أي: بين النبي ومكذبيه، ﴿بِالْقِسْطِ﴾: بالعدل، فأنجى الرسول وعذب المكذبون؛ كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، أو لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ﴾

(١) قوله: «وضعوا في تجارتهم» في الصحاح: وضع الرجل في تجارته وأوضع - على ما لم يسم فاعله - وضعا فيهما، أي خسر (ع).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾: استعجال لما وعدوا من العذاب استبعاداً له، ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا﴾: من مرض أو فقر، ﴿وَلَا نَفْعًا﴾: من صحة أو غنى، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾: استثناء منقطع: أي: ولكن ما شاء الله من ذلك كائن، فكيف أملك لكم الضرر وجلب العذاب؟ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ يعني: أن عذابكم له أجل مضروب عند الله، وحدّ محدود من الزمان، ﴿إِذَا جَاءَ﴾: ذلك الوقت أنجز وعدكم لا محالة، فلا تستعجلوا، وقرأ ابن سيرين/ ٣١٧ب: «فإذا جاء أجالهم».

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيْنَنَا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَمْزُ إِذَا مَا وَقَعَ مَا مَنَّمُ بِهِ ؕ أَلَفَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْرُونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿بَيْنَنَا﴾: نصب على الظرف، بمعنى وقت بيات.

فإن قلت: هلا قيل: ليلاً أو نهاراً؟

قلت: لأنه أريد: إن أتاكم عذابه وقت بيات فيبتكم وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون، كما يبيت العدو المباغت، والبيات بمعنى: التبييت، كالسلام بمعنى: التسليم، وكذلك قوله: ﴿نَهَارًا﴾ معناه: في وقت أنتم فيه مشغولون بطلب المعاش والكسب؛ ونحوه: ﴿بَيْنَنَا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧]، ﴿صُحَّى وَهُمْ يَلْمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨]، الضمير في ﴿وَنَهُ﴾: للعذاب، والمعنى: أن العذاب كله مكروه مَرَّ المذاق موجب للنفار، فأى شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال، ويجوز أن يكون معناه: التعجب؛ كأنه قيل: أي شيء هول شديد^(١) يستعجلون منه، ويجب أن تكون «من»: للبيان في هذا الوجه، وقيل: الضمير في (منه): لله تعالى.

فإن قلت: بم تعلق الاستفهام؟ وأين جواب الشرط؟

قلت: تعلق بأرأيتم؛ لأن المعنى: أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون، وجواب الشرط محذوف، وهو: تدموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ فيه.

(١) قوله: «أي شيء هول شديد» لعله أي شيء أتى هولاً شديداً.

فإن قلت: فهلا قيل: ماذا تستعجلون منه^(١)؟

قلت: أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجماع؛ لأن من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه، ويهلك فزعاً من مجيئه وإن أبطأ، فضلاً أن يستعجله، ويجوز أن يكون: ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾: جواباً للشرط؛ كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني؟ ثم تتعلق الجملة بأرأيتم، وأن يكون: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ جواب الشرط، و﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾: اعتراضاً، والمعنى: إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، ودخول حرف الاستفهام على ثم، كدخوله على الواو والفاء في قوله: ﴿أَفَأَمِينَ أَهْلَ الْقُرَى﴾ [الأعراف: ٩٧]، ﴿أَوْ أَمِينَ أَهْلَ الْقُرَى﴾ [الأعراف: ٩٨]. ﴿الآن﴾: على إرادة القول، أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب: الآن آمنتم به، ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ سَاسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني: وقد كنتم به تكذبون؛ لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار، وقرئ: «الآن»، بحذف الهمزة التي بعد اللام، والفاء حركتها على اللام، ﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾: عطف على «قيل» المضمرة قبل «الآن».

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبُ إِي وَرَبِّ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿٥٧﴾

﴿ويستنبئونك﴾: ويستخبرونك فيقولون، ﴿أحقُّ هو﴾: وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء، وقرأ الأعمش: «أحق هو»، وهو أدخل في الاستهزاء؛ لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل؛ وذلك أن اللام للجنس، فكأنه قيل: أهو الحق لا الباطل؟ أو أهو الذي سميتوه الحق، والضمير للعذاب الموعود، و﴿إي﴾ بمعنى: «نعم» في القسم خاصة، كما كان «هل» بمعنى: «قد» في الاستفهام خاصة، وسمعتهم يقولون في التصديق: «إيو»، فيصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده، ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزِينَ﴾: بفائتين العذاب، وهو لاحق بهم لا محالة.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿ظلمت﴾: صفة لنفس على: ولو أن لكل نفس ظالمة، ﴿ما في الأرض﴾ أي: ما في

(١) قال محمود: «إن قلت هلا قيل ماذا تستعجلون منه... إلخ؟ قال أحمد: وفي هذا النوع البليغ نكتتان، إحداهما: وضع الظاهر مكان المضمرة. والأخرى: ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر، وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة والمبالغة، والله أعلم.

الدنيا اليوم من خزائنها، وأموالها، وجميع منافعها على كثرتها، ﴿لَأَقْتَدَت بِهٖ﴾: لجعلته فدية لها، يقال: فداه فافتدى، ويقال: افتداه/ ١٣١٨ - أيضاً - بمعنى: فداه، ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾؛ لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ولم يخطر ببالهم، وعانينا من شدة الأمر وتفاقمه ما سلبهم قواهم وبهرهم، فلم يطبقوا عنده بكاء، ولا صراخاً، ولا ما يفعله الجازع، سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب؛ كما ترى المقدم للصلب يشخه ما دهمه من فظاعة الخطب، ويغلب حتى لا ينبس بكلمة^(١)، ويبقى جامداً مبهوتاً، وقيل: أسر رؤسائهم الندامة من سفلتهم الذين أضلوهم، حياء منهم وخوفاً من توبيخهم، وقيل: أسروها أخلصوها، إما لأن إخفاءها إخلاصها، وإما من قولهم: سر الشيء، لخالصه، وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة، وقيل: أسروا الندامة: أظروها، من قولهم: أسر الشيء وأشره إذا أظهره، وليس هناك تجلد، ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الظالمين والمظلومين، دل على ذلك ذكر الظلم، ثم أتبع ذلك الإعلام بأن له الملك كله؛ وأنه المثيب المعاقب، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق، وهو القادر على الإحياء والإماتة، لا يقدر عليهما غيره، وإلى حسابه وجزائه المرجع، ليعلم أن الأمر كذلك، فيخاف ويرجى، ولا يعتر به المغترون.

﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ﴾ أي: قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبية على التوحيد، ﴿و﴾: هو ﴿شِفَاءٌ﴾ أي: دواء، ﴿لِّمَا فِي﴾: صدوركم من العقائد الفاسدة، ودعاء إلى الحق، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: لمن آمن به منكم، أصل الكلام: بفضل الله وبرحمته فليفرحوا، فبذلك فليفرحوا؛ والتكرير للتأكيد والتقرير، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا، فحذف أحد الفعلين؛ للدلالة المذكور عليه، والفاء داخله لمعنى الشرط؛ كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوما بالفرح؛ فإنه لا مفروح به أحق منهما، ويجوز أن يراد: بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا، ويجوز أن يراد: قد جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته، فبذلك: فبمجيئها فليفرحوا، وقرئ: «فلتفرحوا»، بالتاء وهو الأصل والقياس^(٢)، وهي قراءة رسول الله - ﷺ - فيما روي،

(١) قوله: «لا ينبس بكلمة» أي لا يتكلم. أفاده الصحاح (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «إنها لغة قليلة» يعني: أن القياس أن يؤمر المخاطب بصيغة (أفعل) وبهذا الأصل، قرأ أبي «فافرحوا» وهي في مصحفه كذلك، وهذه قاعدة كلية، وهي: أن الأمر باللام يكثر في الغائب والمخاطب المبني للمفعول، مثال الأول: «ليقم زيد» وكالآية الكريمة =

وعنه: «لِتَأْخُذُوا مَصَاجِعَكُمْ» (٧٤٨) قالها في بعض الغزوات، وفي قراءة أبي: «فافرحوا»، ﴿هُوَ﴾: راجع إلى ذلك، وقرئ: «مما تجمعون»، بالياء والتاء، وعن أبي بن كعب أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - تلا: ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِي﴾؛ فقال: «بكتاب الله والإسلام» (٧٤٩)، وقيل: «فضله»: الإسلام، «ورحمته»: ما وعد عليه.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ﴾
 أمر على الله تفترت ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: أخبروني، و﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: «ما» في موضع النصب بأنزل، أو بأرأيتم، في معنى: أخبروني، ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ أي: أنزله الله رزقاً حلالاً كله فبعضتموه، وقلتم: هذا حلال وهذا حرام؛ كقولهم: ﴿هَذِهِ أَنْعَمٌ وَحَرَّتْ حَبْرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ يَذْكُرُونَهَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩]، ﴿اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ﴾: متعلق بأرأيتم، وقل: تكرير للتوكيد، والمعنى: أخبروني: الله أذن لكم في التحليل/ ٣١٨ ب والتحریم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تتكذبون على الله في نسبة ذلك

٧٤٨ - أخرجه الترمذي (٣٢٣٥)، وأحمد (٢٤٣/٥) من طريق مالك بن يخامر السكسكي عن معاذ بن جبل مرفوعاً، وهو حديث طويل.

وقال الحافظ: هذا طرف من حديث أخرجه الترمذي من حديث معاذ بن جبل قال: «أبطأ عنا رسول الله ﷺ في صلاة الفجر حتى كادت الشمس تطلع، ثم خرج فأقيمت الصلاة، فصلى بنا صلاة تجوزها، فلما سلم قال: كما أنتم على مصاعكم - الحديث» انتهى.

٧٤٩ - أخرجه الطبري في تفسيره: (٥٦٨/٦) موقوفاً على أبي سعيد الخدري رقم (١٧٦٨٣)، وهلال بن يساف رقم (١٧٦٨٥ - ١٧٦٨٦ - ١٧٦٨٧ - ١٧٦٨٨) و(٥٦٩/٦) موقوفاً أيضاً على قتادة رقم (١٧٦٩٠)، والحسن رقم (١٧٦٩١)، ومجاهد رقم (١٧٦٩٢)، وابن عباس رقم (١٧٦٩٥)، وزيد ابن أسلم رقم (١٧٦٩٩ - ١٧٧٠٠).

وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه موقوفاً على الخدري وعلي وابن عباس؛ كما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على ابن عباس؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٢٨/٢)، وعزاه أيضاً إلى ابن مردويه في تفسيره.

قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ فذكره. وعن ابن سعيد كذلك أخرجه الطبري، وروى ابن مردويه من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قل بفضل الله وبرحمته» قال: بفضل الله القرآن وبرحمته أن جعلكم من الملة» انتهى.

= في قراءة الجمهور. انتهى. الدر المصون.

(١) قوله: «لتأخذوا مصاجعكم» لعل الرواية «مصافكم» (ع).

إليه، ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار، وأم منقطعة بمعنى: بل أنفترون على الله، تقريراً للافتراء، وكفى بهذه الآية زاجرة زجرأً بليغاً عن التجوز فيما يسأل عنه من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وألاً يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت، وإلا فهو مفتر على الله، ﴿يَوْمَ أَلْقَيْنَا﴾: منصوب بالظن، وهو ظن واقع فيه، يعني: أي شيء ظن المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة، وهو وعيد عظيم؛ حيث أبهم أمره، وقرأ عيسى بن عمر: «وما ظن»، على لفظ الفعل، ومعناه: وأي ظن ظننا يوم القيمة، وجيء به على لفظ الماضي؛ لأنه كائن فكان قد كان، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾؛ حيث أنعم عليهم بالعقل، ورحمهم بالروحي، وتعليم الحلال والحرام، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾: هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦١)

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾: «ما» نافية، والخطاب لرسول الله - ﷺ - «والشأن»: الأمر، وأصله: الهمز، بمعنى: القصد، من شأنت شأنه إذا قصدت قصده، والضمير في: ﴿مِنْهُ﴾: للشأن؛ لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله - ﷺ - بل هو معظم شأنه، أو للتنزيل، كأنه قيل: وما تتلو من التنزيل من قرآن؛ لأن كل جزء منه قرآن، والإضمار قبل الذكر تفخيم له، أو لله - عز وجل - وما ﴿تَعْمَلُونَ﴾: أنتم جميعاً، ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾: أي عمل كان، ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: شاهدين رقباء نحصي عليكم، ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه، ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾: قرىء بالضم والكسر: «وما يبعد، وما يغيب»، ومنه: الروض العازب، ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾: القراءة بالنصب والرفع، والوجه النصب على نفي الجنس، والرفع على الابتداء؛ ليكون كلاماً برأسه، وفي العطف على محل: ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾، أو على لفظ: (مِثْقَالِ ذَرَّةٍ)، فتحاً في موضع الجز؛ لامتناع الصرف؛ إشكال، لأن قولك: «لا يعزب عنه شيء إلا في كتاب» مشكل.

فإن قلت: لم قدمت الأرض على السماء، بخلاف قوله في سورة سبأ: ﴿عَلِيِّ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٣]؟

قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: لاءم ذلك أن قدم الأرض على السماء، على أن العطف بالواو حكمه حكم التثنية.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا
يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

﴿أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾: الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة، وقد فسر ذلك في قوله:
﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٦٣)، فهو توليهم إياه، ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ﴾: فهو توليه إياهم، وعن سعيد بن جبیر أنّ رسول الله - ﷺ - /- ٣١٩ سُئِلَ: من
أولياء الله؟ فقال: «هُمُ الَّذِينَ يُذَكِّرُ اللَّهُ بِرُؤُوسِهِمْ» (٧٥٠) يعني: السمات والهيئات، وعن ابن

٧٥٠ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٢٨/٢): هكذا ذكره المصنف مرسلًا، وقد روي مرسلًا
ومسندًا. أ.هـ.

قلت: وروي أيضاً موقوفاً.

فالمسند:

أخرجه الساسني في تفسيره لسورة يونس (٥٧١/١) رقم (٢٥٥)، وابن المبارك في كتابه «الزهد
والرقائق»: (ص ٧٢) رقم (٢١٨)، والطبراني في «الكبير»: (١٣/١٢) رقم (١٢٣٢٥)، والواحدي
في تفسيره (٥٥٢/٢).

كلهم من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس مرفوعاً.
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٩/٧) وقال: رواه الطبراني عن شيخه الفضل بن أبي روح ولم
أعرفه، وبقيّة رجاله ثقات. أ.هـ.

كما ذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٥٥٦/٣)، وزاد نسبه لأبي الشيخ وابن أبي حاتم وابن
مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس مرفوعاً.

وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١٢٨/٢) إلى الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والبيزار في
مسنده.

وأما المرسل:

فأخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه»: (٧٩/٧) رقم (٣٤٣٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/١) و(٧/
٢٣١)، والطبري في تفسيره (٥٧٥/٦) رقم (١٧٧٢٣)، وابن المبارك في الزهد ص (٧٢) رقم
(٢١٧)، وابن مردويه في تفسيره؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٢٩/٢).

كلهم من طرق مختلفة عن سعيد بن جبیر مرسلًا.
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٥٦/٣)، وزاد نسبه لأبي الشيخ عن سعيد بن جبیر مرسلًا.

وأما الموقوف:

فأخرجه الطبري في تفسيره (٥٧٥/٦) رقم (١٧٧١٨) بسنده عن مقسم وسعيد بن جبیر عن ابن
عباس موقوفاً. وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٥٥٦/٣)، وزاد نسبه إلى الطبراني وأبي
الشيخ وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس موقوفاً.

وللحديث شاهد من حديث أسماء بنت يزيد:

أخرجه ابن ماجه في سننه (١٣٧٩/٢): كتاب الزهد: باب مَنْ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، حديث (٤١١٩)،
وأحمد (٤٥٩/٦)، وعبد بن حميد (ص ٤٥٧) رقم (١٥٨٠ - منتخب) والطبراني في الكبير (٢٤) :

عباس - رضي الله عنه - : الإخبات والسكينة، وقيل : هم المتحابون في الله، وعن عمر - رضي الله عنه - : سمعت النبي - ﷺ - يقول «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَاداً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ، يَغِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ» قالوا: يا رسول الله، خَيْرُنَا مَنْ هُمْ، وَمَا أَعْمَالُهُمْ؟ فَلَعَلْنَا نُحِبُّهُمْ، قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا، قَوْلَهُ، إِنَّ وُجُوهُهُمْ لَتُورٌ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَتَابِرٍ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ» ثم قرأ الآية (٧٥١)، (الذين آمنوا): نصب أو

== ١٦٧ - ١٦٨) رقم (٤٢٣ - ٤٢٤ - ٤٢٥)؛ كلهم من طرق عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ . . . الحديث. وقال البوصيري في «الزوائد»: (٢٧٣/٣): هذا إسناد حسن وشهر بن حوشب وسويد بن سعيد مختلف فيهما، وباقي رجال الإسناد ثقات. أ.هـ.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٦/٨) بعد أن نسبه لأحمد وحده: وفيه شهر بن حوشب وقد وثقه غير واحد، وبقية رجال أحد أسانيده رجال الصحيح. أ.هـ. والحديث ذكره السيوطي في «الدر»: (٥٥٧/٣)، وزاد نسبه للحكيم الترمذي وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد به وله شاهد آخر من حديث عبد الرحمن بن غنم مرفوعاً:

أخرجه أحمد (٢٢٧/٤) عن سفيان عن ابن أبي الحسين عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي ﷺ: «خيار عباد الله الذين إذ رُثوا ذُكر الله، وشرار عباد الله المشاءون. بالنميمة المفرقون بين الأحبة، الباغون البراء العنت».

وعبد الرحمن بن غنم مختلف في صحته، وذكره العجلي في كبار ثقات التابعين.

وله شاهد آخر من حديث عمرو بن الجموح مرفوعاً:

أخرجه أحمد (٤٣٠/١)، وأبو نعيم في الحلية (٦/١)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (١/٩٢)، وقال: «وفيه رشدين بن سعد، وهو متقطع ضعيف».

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٥٧/٣)، وزاد نسبه إلى الحكيم الترمذي.

قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة من رواية أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبي المغيرة عنه به، وابن مردويه من طريق يحيى الحماني عن يعقوب السهمي عن جعفر كذلك ووصله، والبخاري من رواية محمد بن سعيد بن سابق عن يعقوب يذكر ابن عباس. قال: سئل رسول الله ﷺ عن الأولياء قال: الذين إذا رُثوا ذكر الله. قال البخاري: رواه غير محمد عن يعقوب بغير ابن عباس. انتهى.

٧٥١ - أخرجه أبو داود (٢٨٨/٣): كتاب البيوع: باب في الرهن، حديث (٣٥٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٨٦/٦) رقم (٨٩٩٨ - ٨٩٩٩)، ثم قال: وأبو زرعة عن عمر مرسل أ.هـ. والطبري في تفسيره (٥٧٦/٦) رقم (١٧٧٢٩)، وأبو نعيم في الحلية (٥/١)، والواحدي في تفسيره (٢/٥٥٢ - ٥٥٣)، وإسحاق بن راهويه في مسنده، وأبي القاسم الأصبهاني في كتابه الترغيب والترهيب؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٣٠/٢).

كلهم من طريق عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن عمر بن الخطاب، فذكره. وقد روي هذا الحديث من حديث أبي هريرة، وأبي مالك الأشعري، وابن عمر، والعلاء بن زياد، وأنس، وأبي الدرداء.

= فحديث أبي هريرة:

أخرجه الثسائي في التفسير (٥٧٤/١)، وابن جبان في صحيحه (٣٣٢/٢ - ٣٣٣) رقم (٥٧٣)، وأبو يعلى في مسنده: «(٤٩٥/١٠ - ٤٩٦) حديث (٦١١٠)، والطبري في تفسيره (٥٧٥/٦) رقم (١٧٧٢٨) كلهم من طريق عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة به.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٥٥٧/٣ - ٥٥٨)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة به.

وأما حديث أبي مالك الأشعري:

أخرجه أحمد (٣٤١/٥ - ٣٤٢ - ٣٤٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان»: (٤٨٦/٦ - ٤٨٧) رقم (٩٠٠١)، وأبو يعلى في مسنده (٢٣٣/١٢ - ٢٣٤) رقم (٦٨٤٢)، وابن المبارك في «الزهدي»: ص (٢٤٨ - ٢٤٩) رقم (٧١٤)، وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠١/١١) رقم (٢٠٣٢٤)، والطبراني في الكبير (٣٢٩/٣) رقم (٣٤٣٣)، والطبري في تفسيره (٥٧٦/٦) رقم (١٧٧٣٠)؛ كلهم من طريق ابن أبي حسين عن شهر بن حوشب عن أبي مالك الأشعري به.

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٩/١٠)، وقال: رواه أحمد كله، والطبراني بنحوه... ورجاله وثقوا. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٥٨/٣)، وزاد نسبه لابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي مالك الأشعري به.

وأما حديث ابن عمر:

فأخرجه الحاكم في مستدرکه: (١٧٠/٤، ١٧١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٥٧/٣).

وأما حديث العلاء بن زياد:

فأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي: (١٣١/٢).

وقال ابن حجر: وعن العلاء بن زياد مرسلًا، أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٥٥٩/٣).

وأما حديث أنس:

فأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (٣٦٧/١) رقم (٤٠٩)، وقال ابن حجر: وفيه واقد بن سلامة عن يزيد الرقاشي، وهما ضعيفان.

وأخرجه ابن عددي في الكامل، والعقيلي في الضعفاء وأعله بواقد، قال ابن عددي: لم يصح حديثه، ونقل العقيلي عن البخاري نحوه، قال: ولا يتابع عليه إلا من طريق يقاربه؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٣١/٢).

وأما حديث أبي الدرداء:

فذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٨٠/١٠)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه من لم أعرفهم.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه إسحاق بن راهويه والطبري، وأبو نعيم في أوائل الحلية، والبيهقي في الشعب من رواية جرير عن عمارة بن غزية عن أبي زرعة عن عمر به. قال البيهقي: أبو زرعة عن عمر موصل.

ورواه ابن مردويه من وجه آخر يذكر أبي هريرة بين أبي زرعة وعمر، ورواه الثسائي وابن جبان من =

في الدنيا: ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه، وعن النبي - ﷺ -: هي «الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له» (٧٥٢)، وعنه عليه الصلاة والسلام: «ذَهَبَتِ النَّبُوءُ وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّرَاتُ» (٧٥٣) وقيل: هي محبة الناس له والذكر الحسن، وعن أبي ذر:

وجه آخر عن أبي زرعة عن أبي هريرة. فلم يذكر عمر. وفي الباب عن أنس أخرجه ابن عدي والعلقبلي، والبيهقي في الشعب أيضاً في العاشر منه، وفيه واقد بن سلامة عن يزيد الرقاشي. وهما ضعيفان. وعن أبي الدرداء أخرجه الطبراني وفيه فرج بن فضالة وهو ساقط. وعن أبي مالك الأشعري. أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه الطبراني والبيهقي وفيه شهر بن حوشب، وعن ابن عمر أخرجه الحاكم من رواية زياد بن خيثمة عنه. وعن العلاء بن زياد مرسلأ. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه. انتهى.

٧٥٢ - أخرجه الترمذي (٢٢٧٥) وأخرجه ابن ماجه (١٢٨٣/٢): كتاب تعبير الرؤيا: باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، حديث (٣٨٩٨)، والدارمي (١٢٣/٢): كتاب الرؤيا: باب في قوله تعالى «لهم البشرى في الحياة الدنيا»، وأحمد (٣١٥/٥، ٣٢١) من طريق يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة عن عبادة بن الصامت به. وأخرجه الترمذي (٢٢٧٣)، وأخرجه أحمد (٤٤٥/٦، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٥٢)، والحميدي (١٩٣/٢)، حديث (٣٩١، ٣٩٢)، من طريق عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، عن أبي الدرداء به. قال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه الترمذي وابن ماجه، والحاكم والبيهقي وأحمد، وإسحاق من طريق أبي سلمة عن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: «لهم البشرى في الحياة الدنيا»، قال: هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له، رجاله ثقات: إلا أنه معلول؛ فإن أبا سلمة لم يسمع من عبادة، وقد أخرجه الترمذي والحاكم أيضاً عن أبي سلمة قال: نبئت عن عبادة، وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية حميد بن عبد الرحمن المرسى عن عبادة. وأخرجه الترمذي أيضاً وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبة، وأبو يعلى والطبراني والبيهقي من طريق عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر: سألت أبا الدرداء عن قول الله تعالى: «لهم البشرى في الحياة الدنيا»، قال: سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له، زاد بعضهم: «وفي الآخرة الجنة» قال ابن أبي حاتم عن أبيه: هذا الرجل لا يعرف. وفي الباب عن ابن مسعود أخرجه ابن مردويه بلفظ: «سألت رسول الله ﷺ فذكر مثل حديث عبادة»، وعن جابر بن عبد الله بن رباب أخرجه البزار، وابن عدي ومن طريق الكلبي عن أبي صالح عنه مرفوعاً في قوله تعالى: (لهم البشرى). الحديث.

وعن جابر أخرجه ابن مردويه من رواية جابر الجعفي عن أبي جعفر عن جابر. قال: جابر هذا هو ابن رباب. كذا قال فأخطأ. وقد أخرجه من وجه آخر عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن أبي هريرة، أخرجه الطبري وابن مردويه من رواية عمار بن محمد عن الأعمش عن أبي صالح عنه. قيل: انفرد به عمار. لكن أخرجه الثنائي في الكنى من رواية إسحاق بن عبد الرحمن بن عمر: أن الأعمش حدثه، فذكره. وقال: أبو إسحاق لا أعرفه. والحديث خطأ. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، أخرجه الثنائي، وأبو يعلى من رواية دراج عن عبد الرحمن بن جبيرة عنه. وزاد: «الرؤيا جزء من تسعة وأربعين جزءاً من النبوة». انتهى.

٧٥٣ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٣٥/٢): رُوِيَ من حديث حذيفة بن أسيد، ومن حديث أبي =

قلت لرسول الله - ﷺ -: الرجل يعمل العمل لله، ويحبه الناس، فقال: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ» (٧٥٤)، وعن عطاء: لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة، قال الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠]،

= الطفيل ومن حديث أم كرز الكعبية. أهـ.

أما حديث حذيفة بن أسيد:

أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠٠/٣) رقم (٣٠٥١)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٧/١٧٦)، وقال: رواه الطبراني والبخاري، ورجال الطبراني ثقات. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٥٦٠)، وعزاه إلى ابن مردويه وأما حديث أبي الطفيل عامر بن وائلة:

فأخرجه أحمد في مسنده: (٤٥٤/٥)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١٣٥/٢) إلى البخاري في تاريخه الوسط في باب العين المهمل في ترجمة عثمان بن عبيد، وإلى الطبراني في معجمه، وإلى أبي يعلى الموصلي في مسنده.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٥٦٠)، وعزاه إلى سعيد بن منصور وأحمد وابن مردويه عن أبي الطفيل عامر بن وائلة به، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٦/٧)، وقال: رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات. أهـ.

وأما حديث أم كرز الكعبية:

فأخرجه ابن ماجه (١٢٨٣/٢)، كتاب تعبير الرؤيا: باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، حديث (٣٨٩٦)، وأحمد (٣٨١/٦)، والدارمي (١٢٣/٢): كتاب الرؤيا: باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات، والحميدي (١٦٧/١) رقم (٣٤٨)، وابن جبان (٤١١/١٣) رقم (٦٠٤٧)، والطبري في تفسيره (٥٧٩/٦) رقم (١٧٧٤٧).

كلهم من حديث سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبي زيد عن أبيه عن سباع بن ثابت عن أم كرز الكعبية به. وذكره البوصيري في «الزوائد» (١٤٢/١)، وقال: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. وللحديث شواهد أيضاً من طريق عائشة وأبي هريرة وابن عباس.

فأما حديث عائشة:

فأخرجه أحمد (١٢٩/٦) من طريق سعيد بن عبد الرحمن الجمحي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٥٦٠) وزاد نسبه إلا ابن مردويه.

وأما حديث أبي هريرة:

فأخرجه البخاري (٤٠١/١٤): كتاب التعبير، باب المبشرات، حديث (٦٩٩٠)، والبيهقي في السنن الكبرى: (٨٨/٢)، والبخاري في شرح السنة (٢٩١/٥ - بتحقيقنا) رقم (٣١٦٥)؛ كلهم من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة بنحوه مرفوعاً، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٦١/٣).

وأما حديث ابن عباس:

فأخرجه ابن جبان (٤١٠/١٣ - ٤١١) رقم (٦٠٤٥ - ٦٠٤٦) بنحوه.

٧٥٤ - أخرجه مسلم (٤٣٨/٨ - النووي): كتاب البر والصلة والآداب، حديث (٢٦٤٢/١٦٦)، وابن ماجه (١٤١٢/٢): كتاب الزهد: باب الثناء الحسن، حديث (٤٢٢٥) كلاهما من طريق أبي عمران الجوني عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر به.

قال الحافظ: في تخريج الكشاف: أخرجه مسلم بلفظ: «فتحبه وتحمده الناس عليه» انتهى.

وأما البشرى في الآخرة فتلقى الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة، وما يرون من بياض وجوههم، وإعطاء الصحائف بأيمانهم، وما يقرؤون منها، وغير ذلك من البشارات، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده؛ كقوله تعالى: ﴿مَا يَدُلُّ الْقَوْلَ لَدَيْ﴾ [ق: ٢٩]، و﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين، وكلتا الجملتين اعتراض.

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٦٥)

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ﴾، وقرئ: «ولا يحزنك»، من أحزنه، ﴿قَوْلُهُمْ﴾: تكذيبهم لك، وتهديدهم، وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك، وسائر ما يتكلمون به في شأنك، ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾: استئناف بمعنى: التعليل، كأنه قيل: مالي لا أحزن؟ فقيل: إن العزة لله جميعاً، أي: إن الغلبة والقهر في ملكة الله جميعاً، لا يملك أحد شيئاً منها لاهم ولا غيرهم، فهو يغلبهم وينصرك عليهم، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [صافات: ٥١]. وقرأ أبو حنيفة: «أن العزة»، بالفتح، بمعنى: لأن العزة على صريح التعليل، ومن جعله بدلاً من قولهم ثم أنكره، فالمنكر هو تخريجه، لا ما أنكر من القراءة به، ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: يسمع ما يقولون، ويعلم ما يدبرون ويعزمون عليه، وهو مكافئهم بذلك.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (١٦٦)

﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: العقلاء المميزين وهم الملائكة والثقلان؛ وإنما خصهم، ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له في ملكته فهم عبيد كلهم، وهو سبحانه وتعالى ربهم / ٣١٩ ب ولا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكاً له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحق ألا يكون له نداً وشريكاً، وليدل على أن من اتخذ غيره رباً من ملك أو إنسي فضلاً عن صنم أو غير ذلك، فهو مبطل، تابع لما أدى إليه التقليد وترك النظر، ومعنى: «وما يتبعون شركاء»، أي: وما يتبعون حقيقة الشركاء، وإن كانوا يسمونها: شركاء؛ لأن شركة الله في الربوبية محال، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا﴾: ظنهم أنها شركاء، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾: يحزرون، ويقدر أن تكون شركاء تقديراً باطلاً، ويجوز أن يكون: (وما يتبع) في معنى الاستفهام، يعني: وأي شيء يتبعون، و(شركاء): على هذا نصب يبدعون، وعلى الأول بيتبع، وكان حقه، وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء

شركاء، فاقصر على أحدهما؛ لدلالة^(١)، ويجوز أن تكون «ما»: موصولة معطوفة على: «من»؛ كأنه قيل: والله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء، أي: وله شركاؤهم، وقرأ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - «تدعون»، بالتاء، ووجهه أن يحمل: (وما يتبع) على الاستفهام، أي: وأي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبیین، يعني: أنهم يتبعون الله ويطيعونه، فما لكم لا تفعلون مثل فعلهم؟ كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] ثم صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقال: إن يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن، ولا يتبعون ما يتبع الملائكة والنبیون من الحق.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا لِّتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

ثم نبه على عظيم قدرته، ونعمته: الشاملة لعباده التي يستحق بها أن يوحدوه بالعبادة؛ بأنه جعل لهم الليل مظلماً ليسكنوا فيه مما يقاسون في نهارهم من تعب التردّد في المعاش، والنهار مضيئاً يبصرون فيه مطالب أرزاقهم، ومكاسبهم، ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: سماع معتبر مذكور.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لِمَ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أْتَقُولُ عَلٰى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

﴿سُبْحٰنَهُ﴾: تنزيه له عن اتخاذ الولد، وتعجب من كلمتهم الحمقاء، ﴿هو الغني﴾: علة لنفي الولد؛ لأن ما يطلب به الولد من بلد، وما يطلبه له السبب في كله الحاجة، فمن الحاجة منتفية عنه كان الولد عنه منتفياً، ﴿لِمَ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولداً، ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا﴾: ما عندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتعلق بقوله: (إن عندكم) على أن يجعل القول مكاناً للسلطان؛ كقولك: ما عندكم بأرضكم موز، كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان، ﴿أْتَقُولُ عَلٰى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: لما نفي عنهم البرهان جعلهم غير عالمين، فدلّ على أن كل قول لا برهان عليه لقائله فذاك جهل وليس يعلم.

(١) قال السمين الحلبي: وهذا الذي ذكره الزمخشري قد ردّه مكي بن أبي طالب وأبو البقاء، أما مكي فقال: انتصب «شركاء» بـ «يدعون» ومفعول «يتبع» قام مقامه «إن يتبعون إلا الظن» لأنه هو، ولا ينتصب الشركاء بـ «يتبع»، لأنك تنفي عنهم ذلك والله قد أخبر به عنهم. انتهى. الدر المصون.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾: بإضافة الولد إليه، ﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: افتراؤهم / ١٣٢٠
هذا منفعة قليلة في الدنيا؛ وذلك حيث يقيمون رياستهم في الكفر ومناصبه النبي - ﷺ -
بالتظاهر به، ثم يلقون الشقاء المؤبد بعده.

﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ إِنْ كَانَ كِبْرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِشَأْنِ اللَّهِ
فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا
نُنْظِرُونَ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
الْمُتَسَلِّمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَمَلْنَهُمْ خَلْقَيْفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِأَيِّنَّا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدْرِينِ ﴿٧٣﴾﴾

﴿كِبْرٌ عَلَيْكُمْ﴾: عظم عليكم وشق وثقل، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى
الْغَاشِيِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، ويقال: تعاضمه الأمر، ﴿مَقَامِي﴾: مكاني، يعني: نفسه، كما
تقول: فعلت كذا لمكان فلان، وفلان ثقبيل الظل، ومنه: ﴿وَلَمَّا خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ بمعنى:
خاف ربه، أو قيامي^(١) ومكثي بين أظهركم مدداً طويلاً ألف سنة إلا خمسين عاماً، أو
مقامي^(٢) وتذكيري؛ لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم؛ ليكون
مكانهم بيناً وكلامهم مسموعاً، كما يحكى عن عيسى - صلوات الله عليه - أنه كان يعظ
الحواريين قائماً وهم قعود، ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾: من أجمع الأمر وأزمعه، إذا نواه
وعزم عليه؛ قال [من الكامل]:

هَلْ أَغْدُونَ يَوْمًا وَأَمْرِي مُجْمَعٌ؟^(٣)

(١) قوله: «أو قيامي ومكثي» لعله أو مقامي بالضم (ع).

(٢) قوله: «أو مقامي وتذكيري» لعل هذا أو قيامي (ع).

(٣) يا ليت شعري والحوادث جمعة هل أغدون يوماً وأمري مجمع

قوله: «والحوادث جمعة» أي كثيرة. جملة اعتراضية. وأغدون: مؤكد بالنون الخفيفة. وأمري
مجمع: أي منوي مجزوم بامتثاله. أو المعنى: وشملي مجمع بعد تفرقه، وهي جملة حالية مغنية
عن خير أغدون. أو خيرها. وزيدت الواو لتوكيد الربط. وأجمع يتعلق بالمعقول، وجمع يتعلق
بالمحموس.

ينظر: إصلاح المنطق ص ٢٦٣، وأمالي المرتضى ١/٥٥٩، والخصائص ٢/١٣٦، والدرر ٤/
٢٠، وشرح شواهد المغني ٢/٨١١، ولسان العرب (جمع)، ١٤/٣٥٧ (رمي)، ومغني اللبيب ٢/ =

والواو بمعنى: «مع»، يعني: فأجمعوا أمركم مع شركائكم، وقرأ الحسن: «وشركاؤكم» بالرفع، عطفاً على الضمير المتصل، وجاز من غير تأكيد بالمنفصل؛ لقيام الفاصل مقامه؛ لطول الكلام، كما تقول: اضرب زيدا وعمرو، وقرئ: «فأجمعوا» من الجمع، وشركاءكم: نصب للعطف على المفعول، أو لأن الواو بمعنى: «مع»، وفي قراءة أبي: فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم.

فإن قلت: كيف جاز إسناد الإجماع إلى الشركاء؟

قلت: على وجه التهكم؛ كقوله: ﴿ثُمَّ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا﴾ [الأعراف: ١٩٥].

فإن قلت: ما معنى الأمرين؟ أمرهم الذي يجمعونه، وأمرهم الذي لا يكون عليهم غمة؟

قلت: أما الأمر الأول: فالقصد إلى إهلاكه، يعني: فأجمعوا ما تريدون من إهلاكه واحتشدوا فيه، وابدلوا وسعكم في كيدي؛ وإنما قال ذلك إظهاراً لقلته بمالاته وثقته بما وعده ربه من كلاته وعصمته إياه، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلاً.

وأما الثاني ففيه وجهان:

أحدهما: أن يراد مصاحبته له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم، يعني: ثم أهلكوني؛ لثلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة، أي: غمًا وهمًا، والغم والغمة: كالكرب والكربة.

والثاني: أن يراد به ما أريد بالأمر الأول، والغمة السترة من غمه إذا ستره؛ ومنها قوله عليه السلام: «وَلَا غُمَّةَ فِي فَرَائِضِ اللَّهِ» (٧٥٥) أي: لا تستر، ولكن يجاهر بها، يعني: ولا يكن قصدكم إلى إهلاكه مستوراً^(١) عليكم ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهروني به، ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيْ﴾: ذلك الأمر الذي تريدون بي، أي: أدوا إلي قطعاً وتصحيحه؛ كقوله

٧٥٥ - ذكره القاضي عياض في كتابه «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى»: (٩٦/١ - ١٠٠) في فصل فصاحته ﷺ.

قال الحافظ في تخريج الكشاف:

هو طرف من حديث وائل بن حجر في كتاب النبي ﷺ إلى الأنبياء، وفيه: «ولا يؤصم في الدين ولا غمة في فرائض الله»، وقال: الغمة السترة، أي لا تستر في فرائض الله، بل ظاهر بها. انتهى.

= ٣٨٨، ونوادير أبي زيد ص ١٣٣، وهمع الهوامع ٢٤٧/١، وتاج العروس (جمع)، وتهذيب اللغة ٣٩٦/١.

(١) قوله: «مستوراً عليكم» لعله أراد ملتبساً، فلذا قال عليكم، كما أشار إليه النسفي (ع).

تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦]، أو أدوا إلي ما هو حق عليكم عندكم من هلاكي كما يقضي الرجل غريمه، ﴿وَلَا تُظْهِرُونَ﴾: ولا تمهلوني، وقرىء: «ثم أفضوا إلي»، بالفاء، بمعنى: ثم انتهوا إلي بشركم، وقيل: هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء، أي: أصحروا به إلي وأبرزوه لي، ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾: فإن أعرضتم عن تذكيري ونصيحتي/ ٣٢٠ب، ﴿مِمَّا سَأَلْتُمُونَنَا مِنْ أَجْرٍ﴾: فما كان عندي ما ينفركم عني وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظمتكم، ﴿إِن أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾: وهو الثواب الذي يثبني به في الآخرة، أي: ما نصحتكم إلا لوجه الله، لا لغرض من أغراض الدنيا، ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل: ٩١]: الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئاً، ولا يطلبون به دنيا، يريد: أن ذلك مقتضى الإسلام، والذي كل مسلم مأمور به، والمراد: أن يجعل الحجة لازمة لهم ويبرئ ساحتهم، فذكر أن توليهم لم يكن تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه؛ وإنما ذلك لعنادهم وتمردهم لا غير، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: فتموا على تكذيبه^(١)، وكان تكذيبهم له في آخر المدة المتطاولة كتكذيبهم في أولها؛ وذلك عند مشاركة الهلاك بالطوفان، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ حَتَّابَةً﴾: يخلفون الهالكين بالفرق، ﴿كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُذَرِّينَ﴾: تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن أنذرهم رسول الله - ﷺ - عن مثله، وتسلية له.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٤)

﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: من بعد نوح، ﴿رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ يعني: هوداً، وصالحاً، وإبراهيم، ولوطاً، وشعبياً، ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾: بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾: فما كان إيمانهم إلا ممتنعاً كالمحال لشدة شكيمتهم في الكفر وتصميمهم عليه، ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾: يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق، فما وقع فصل بين حالتهم بعد بعثة الرسل وقبلها، كأن لم يبعث إليهم أحد، ﴿كَذَلِكَ نَطْعُ﴾: مثل ذلك الطبع المحكم نطبع، ﴿عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾: والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم؛ لأن الخذلان يتبعه؛ ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ

(١) قوله: «تموا على تكذيبه» أي استمروا. أفاده الصحاح (ع).

لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيَسَّرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
 آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكَرِيمَةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

﴿من بعدهم﴾: من بعد الرسل، ﴿بآياتنا﴾: بالآيات التسع، ﴿فَأَسْتَكْبِرُوا﴾: عن قبولها، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبيينها، ويتعظموا عن تقبلها، ﴿وَكَاوُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾: كفاراً ذوي آثام عظام؛ فلذلك استكبروا عنها، واجترأوا على رذها، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾: فلما عرفوا أنه هو الحق، وأنه من عند الله، لا من قبل موسى وهارون، ﴿قَالُوا﴾: لحبهم الشهوات، ﴿إِنَّ هَذَا لَيْسَ شَيْئًا﴾: وهم يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر الذي ليس إلا تمويهاً وباطلاً.

فإن قلت: هم قطعوا بقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَيْسَ شَيْئًا﴾ على أنه سحر^(١)، فكيف قيل لهم: أتقولون أسحر هذا؟

قلت: فيه أوجه: أن يكون معنى قوله: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾: أتعيبونه وتطعنون فيه، وكان عليكم أن تدعوا له وتعظموه، من قولهم: فلان يخاف القالة، وبين الناس تقاول إذا قال بعضهم لبعض ما يسوؤه؛ ونحو القول: الذكر، في قوله: ﴿سَمِعْنَا فَقَدْ يَذْكُرُهُمْ﴾ [للأنبياء: ٦]، ثم قال: ﴿أَيَسَّرُ هَذَا﴾، فأنكر ما قالوه في عيبه والظعن عليه، وأن يحذف مفعول: أتقولون، وهو ما دل عليه قولهم، ﴿إِنَّ هَذَا لَيْسَ شَيْئًا﴾: كأنه قيل/ ١٣٢١: أتقولون ما تقولون، يعني: قولهم: إن هذا لسحر مبین، ثم قيل: أسحر هذا؟ وأن يكون جملة قوله: ﴿أَيَسَّرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾: حكاية لكلامهم، كأنهم قالوا: أجنمتما بالسحر تطلبان به الفلاح، ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾: كما قال موسى للسحرة: «ما جئتم به السحر، إن الله سيبطله»، ﴿لِنَأْفِكَنَّ﴾: لتصرفنا، واللفت والفتل: أخوان، ومطاوعمها الالتفات والانفتال، ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، يعنون: عبادة الأصنام، ﴿وَتَكُونُ لَكُمُ الْكَرِيمَةُ﴾ أي: الملك؛ لأن الملوك موصوفون بالكبر؛ ولذلك قيل للملك: الجبار، ووصف بالصيد والشوس؛ ولذلك وصف ابن الرقيات مصعباً في قوله [من الخفيف]:

مُلْكُهُ مَلِكٌ رَاقَةٌ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ مِنْهُ وَلَا كِبْرِيَاءُ^(٢)

(١) قال محمود: «إن قلت هم قطعوا بقولهم إن هذا لسحر مبین على أنه سحر... إلخ» قال أحمد: وفي الفرق بين الوجهين غموض، وإيضاحه أن القول على الوجه الأول وقع كناية عن العيب، فلا يتقاضى مفعولاً وفي الثاني على أنه يطلب مفعولاً والله أعلم.

(٢) لعبد الله بن قيس الرقيات. وقيل: لقيس الرقيات يمدح مصعباً، سمي قيس الرقيات لأنه اتفق له أنه تزوج عدة نوسة، كل منهن تسمى رقية. وملك: وصف كحذر، فلذلك نصب «ملك راقه» على المصدر. وروي «ملكة ملك» على المبتدأ والخبر. وضمير «فيه» للمصدر، أي: ليس في ملكه =

ينفي ما عليه الملوك من ذلك، ويجوز أن يقصدوا ذمهما، وأنهما إن ملكا أرض مصر تجبراً وتكبيراً؛ كما قال القبطي لموسى - عليه السلام - : ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ ، ﴿وَمَا تَحْتُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي : مصدقين لكما فيما جئتما به، وقرئ : «يطبع»، و«يكون لكما»، بالياء .

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْفُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ﴾ : ما موصولة واقعة مبتدأ، و﴿السِّحْرُ﴾ : خبر، أي : الذي جئتم به هو السحر^(١) لا الذي سماه فرعون وقومه سحراً من آيات الله، وقرئ : «السحر»، على

= جيروت منه، أي من مصعب . ويحتمل أن الضميرين له . والجبروت : مبالغة في الجبر والقهر، أي : ليس فيه ذلك كغيره، فهو أعظم الملوك .

(١) قال محمود : «ما موصولة مبتدأ، والسحر خبر أي الذي جئتم به . . . إلخ» قال أحمد : وليس المراد في القراءة الأولى الإخبار بأن ما جاؤوا به سحر خاصة، ولكن مع تنزيه ما جاء به عن كونه سحراً . وإنما يستفاد ذلك مما في هذا النظم المخصوص من إفادة الحصر، ولو مرت بخاطر الإمام أبي لمعالي في مسألة تحريمه التكبير لم يعدل عن الاستشهاد بها على إفادة هذا النظم الحصر، فإننا نعلم أن موسى عليه السلام حيث أطلقه فإنما أراد إضافة السحر إلى ما جاؤوا به محصوراً فيه، حتى لا يتعدى إلى الحق الذي جاء به هو منه شيء . وأما القراءة الثانية ففيها - والله أعلم - إرشاد إلى أن قول موسى عليه السلام أو لا ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْحَرُّ هَذَا﴾ حكاية لقولهم، ويكون ﴿أَيْحَرُّ هَذَا﴾ هو الذي قالوه، ولا يناقض ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا ﴿إِنَّ هَذَا لَيْحَرُّ مِثْلُ﴾ وذلك إما لأنهم قالوا الأمرين جميعاً : بدؤوا بالاستفهام على سبيل الاستهتار بالحق والاستهزاء بكونه حقاً، والاستهزاء بالحق إنكار له، بل قد يكون الاستفهام في بعض المواطن أبت من الإخبار . ألا نرى أنهم يقولون في قوله : أنت أم سالم، أبلغ في البت من قوله : مخبراً أنت أم سالم؟ ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة ببت الإنكار ودعوى أنه سحر فقالوا : إن هذا لسحر مبین، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثاني، ووبخهم موسى على قولهم الأول . ومعنى العبارتين ومآلهما واحد . وإما أن لا يكونوا قالوا سوى (أسحر هذا) على سبيل الإنكار حسماً تقدم، فحكاه الله تعالى عنهم بمآله، لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار وبت القول أنه سحر . وحكى موسى عليه السلام قولهم لفظه، ولم يؤده بعبارة أخرى . وحكاية القصص المتلوة في الكتاب العزيز بصيغ مختلفة لا محمل لها سوى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية، فيترجم عنها بالألفاظ المترادفة المتساوية المعاني . وحاصل هذا البحث : أن قول موسى عليه السلام ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْحَرُّ هَذَا﴾ إنما حكى به قولهم، ويرشد إلى ذلك أنه كافأهم عندما أتوا بالسحر بمثل مقالته مستفهماً، فقال : ما جئتم به السحر؟ على قراءة الاستفهام قرضاً بوفاء على السواء، والذي يحقق لك أن الاستفهام والإخبار في مثل هذا المعنى مؤداهما واحد : أن الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ على الوجهين : الخبر الاستفهام، على ما اقتضته القراءتان، وهو قول واحد دل على أن مؤدى =

الاستفهام، فعلى هذه القراءة «ما»: استفهامية، أي: أي شيء جئتم به، أهر السحر؟ وقرأ عبد الله: «ما جئتم به سحر»، وقرأ أبي: «ما أتيتم به سحر»، والمعنى: لا ما أتيت به، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَبِيحٌ﴾: سيمحقه أو يظهر بطلانه بإظهار المعجزة على الشعوذة، ﴿لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾: لا يشبته ولا يديمه، ولكن يسلط عليه الدمار، ﴿وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَيَّ﴾: ويشبته، ﴿بِكَلِمَتِهِ﴾: بأوامره وقضاياه، وقرىء: «بكلمته»، بأمره ومشيته.

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُتْرَفِينَ﴾ (٨٢)

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ﴾: في أول أمره، ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾: إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل، كأنه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه؛ وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه؛ خوفاً من فرعون، وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف، وقيل: الضمير في قومه لفرعون، والذرية: مؤمن آل فرعون، وآسية: امراته، وخازنه، وامرأة خازنه، وماشطته.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾؟

قلت: إلى فرعون، بمعنى: آل فرعون، كما يقال: ربيعة ومضر، أو لأنه ذو أصحاب يأترون له، ويجوز أن يرجع إلى الذرية، أي: على خوف من فرعون، وخوف من أشرف بني إسرائيل؛ لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم، ويدل عليه قوله: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾: يريد أن يعذبهم، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ﴾: لغالب فيها قاهر، ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُتْرَفِينَ﴾: في الظلم والفساد، وفي الكبر والعتو، بادعائه الربوبية.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِيَّاكُمْ أَمِنْتُ بِاللَّهِ فَأَعْلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِن كُنْتُمْ مِّنْ مُّسْلِمِينَ﴾ (٨٣) ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٥) ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٨٦)

﴿إِن كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ﴾: صدقتم به وبآياته، ﴿فَعْلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾: فإليه أسندوا أمركم في العصمة من فرعون، ثم شرط في التوكل الإسلام، وهو أن يسلموا/ ٣٢١ ب نفوسهم لله، أي: يجعلوها له سالمة خالصة لا حظ للشيطان فيها؛ لأن التوكل لا يكون مع التخليط، ونظيره في الكلام: إن ضربك زيد فاضربه، إن كانت بك قوة، ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾: إنما

= الأمرين واحد ضرورة صدق الخبر. وإنما حمل الزمخشري على تأويل القول بالتعيب، أو إضمار مفعول تقولون. استشكالا لوقوع الاستفهام محكيا بالقول، والمحكي أولاً عنهم الخبر. وقد أوضحنا أنه لا تناقض ولا تنافي بين الأمرين، فشد بهذا الفصل عرى التمسك، فإنه من دقائق النكت. والله الموفق.

قالوا ذلك؛ لأن القوم كانوا مخلصين، لا جرم أن الله سبحانه قبل توكلهم، وأجاب دعاءهم، ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه، وجعلهم خلفاء في أرضه، فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه والتفويض إليه، فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص، ﴿لَا تَحْمَلْنَا فِتْنَةً﴾: موضع فتنة لهم، أي: عذاب يعذبوننا ويفتنونا عن ديننا، أو فتنة لهم يفتنون بنا ويقولون: لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

تبوأ المكان: اتخذه مباءة؛ كقولك: توطنته، إذا اتخذته وطناً، والمعنى: اجعلا بمصر بيوتاً من بيوتهم^(١) مباءة لقومكما ومرجعاً يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه، ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ﴾: تلك ﴿قِبْلَةً﴾ أي: مساجد متوجهة نحو القبلة، وهي: الكعبة، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة، وكانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة؛ لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المؤمنون على ذلك في أول الإسلام بمكة.

فإن قلت: كيف نوع الخطاب، فثنى أولاً، ثم جمع، ثم وحد آخر؟

قلت: خطب موسى وهارون - عليهما السلام - أن يتبوءا لقومهما بيوتاً، ويختاراهما للعبادة؛ وذلك مما يفوض إلى الأنبياء، ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى - عليه السلام - بالبشارة التي هي الغرض؛ تعظيماً لها وللمبشر بها.

﴿وَقَالَكَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُنَّ سَبِيلَكَ رَبَّنَا أَخْلَسْنَا عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدُّدْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

الزينة: ما يتزين به من لباس، أو حلي، أو فرش، أو أثاث، أو غير ذلك، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: «كانت لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب، وفضة، وزبرجد، وياقوت».

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُنَّ سَبِيلَكَ﴾؟

(١) قوله: «بمصر بيوتاً من بيوتهم» لعل الضمير لمصر (ع).

قلت: هو دعاء بلفظ الأمر^(١)؛ كقوله: (ربنا اطمس)، (واشدد)، وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضاً مكزراً وردد عليهم النصائح والمواعظ زماناً طويلاً، وحذرهم عذاب الله وانتقامه، وأنذرهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفراً، وعلى الإنذار إلا استكباراً، وعن النصيحة^(٢) إلا نبواً، ولم يبق له مطمع فيهم، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال، وأن إيمانهم كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة، أو علم ذلك بوحي من الله - اشتد غضبه عليهم، وأفرط مقتته وكراهته لحالهم، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره، كما تقول: لعن الله إبليس، وأخزى الله الكفرة، مع علمك أنه لا يكون غير ذلك، وليشهد عليهم/ ٣٢٢ أ بأنه لم يبق له فيهم حيلة، وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخذلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون^(٣) فيه، كأنه قال: ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال، وليكونوا ضلالاً^(٤)، وليطبع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا وما عليّ منهم، هم أحق بذلك وأحق، كما يقوله الأب المشفق لولده الشاطر إذا ما لم يقبل منه؛ حسرة على ما فاته من قبول نصيحته، وحرماً^(٥) عليه، لا أن يريد خلاعته واتباعه هواه، ومعنى الشد على القلوب، الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾: جواب للدعاء الذي هو: «اشدد»، أو دعاء بلفظ النهي، وقد حملت اللام في ليضلوا على التعليل، على أنهم جعلوا نعمة الله سبباً في الضلال، فكأنهم أوتوها ليضلوا، وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾: عطف على ليضلوا، وقوله: ﴿رَبَّنَا أَطْمَسْ عَلَيَّ أَمْرِيهِمْ وَأَشَدَّدْ عَلَيَّ قُلُوبِهِمْ﴾: دعاء معترض بين المعطوف

(١) قال محمود: «قلت هو دعاء بلفظ الأمر... إلخ» قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي الذي هو أدق من ديبب النمل، يكاد الاطلاع عليه أن يكون كشفاً. ووجه ذلك أنه علم أن الظاهر بل والباطن أن اللام للتعليل؛ وأن الفعل منصوب بها، ومعنى ذلك إخبار موسى عليه السلام بأن الله إنما أمدهم بالزينة والأموال وما يتبعهما من النعم استدراجاً ليزدادوا إثمًا وضلالة، كما أخبر تعالى عن أمثالهم بقوله ﴿إِنَّمَا نُكَلِّمُكُمْ لِيزَادُوا إِثْمًا﴾ وهذا المعنى منتظم على جعل اللام للتعليل، والزمخشري بنى على القاعدة الفاسدة في استحالة ذلك على الله تعالى، لاعتقاده أن من الجور أن يملئ لهم في الضلالة ويعاقبهم عليها، فهو متبيل لما يرد من الآيات بعمل الحيلة في تأويلها وردها إلى معتقده وجعلها تبعاً له، كما تقدم له في تأويل قوله (ليزدادوا إثمًا) وكأين من آية غراء رام أن يسترغرتها ويظفر نورها بأمثال هذه التأويلات الرديئة لفظاً وعقداً، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ثم لا يسعه إلا أن يحمل موسى عليه السلام على أمثال هذه المعتقدات، ولقد برأه الله وكان عند الله وجيهاً.

(٢) قوله: «وعن النصيحة» لعله وعلى (ع).

(٣) قوله: «يتسكعون» في الصحاح: «التسكع» التماذي في الباطل (ع).

(٤) قوله: «وليكونوا ضلالاً» هذا على قراءة (ليضلوا) بفتح الياء. والقراءة المشهورة (ليضلوا) بضمها.

وعبارة النفي: ليضلوا الناس عن طاعتك اه (ع).

(٥) قوله: «وحرماً عليه» في الصحاح: الحرء - بالتحريك: الغضب (ع).

والمعطوف عليه، وقرأ الفضل الرقاشي: «أنتك آتيت؟» على الاستفهام، و«اطمس» بضم الميم.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَمَنَّآَنِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩)

قري: دعواتكما، قيل: كان موسى يدعو وهارون يؤمن، ويجوز أن يكونا جميعاً يدعوان، والمعنى: إن دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن ولكن في وقته، ﴿فَأَسْتَقِيمَا﴾: فابثتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجّة، فقد لبث نوح - عليه السلام - في قومه ألف عام إلا قليلاً ولا تستعجلا، قال ابن جريج: فمكث موسى بعد الدعاء أربعين سنة، ﴿وَلَا تَتَمَنَّآَنِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تتبعنا طريق الجهلة بعبادة الله في تعليقه الأمور بالمصالح، ولا تعجلا؛ فإن العجلة ليست بمصلحة، وهذا كما قال لنوح - عليه السلام - ﴿إِنَّ أَعْيُنَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، وقرىء: «ولا تتبعنا»، بالنون الخفيفة، وكسرهما؛ لالتقاء الساكنين تشبيهاً بنون الثنية، وبتخفيف التاء من تبع.

﴿وَجَوْرْنَا بَيْنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠)

قرأ الحسن: «وجورنا» من أجاز المكان وجوزه وجاوزه، وليس من جوز الذي في بيت الأعمى [من الكامل]:

وَإِذَا تَجَوْرْنَا جِبَالَ قَبِيلَةٍ^(١)

لأنه لو كان منه لكان حقه أن يقال: «وجورنا بني إسرائيل في البحر»؛ كما قال [من الطويل]:

(١) وإذا تجورنا حبال قبيلة أخذت من الأخرى إليك حبالاً للأعمى. وشبه عهود الأمان التي يأخذها من القبيلة بتوثق ويتوصل بها إلى أخرى بالحبال، بجامع التوثق بكل على طريق التصريحية. أي: وإذا تجشمتنا مجاوزة عهود قبيلة وتكلفنا مجاوزة محل أمانها؛ فإيقاع التجوز على الحبال: منجاز عقلي، أخذت ناقتي من القبيلة الأخرى حال كونها ذاهبة إليك حبالاً، أي عهوداً للتوصل للقبيلة الأخرى، وهكذا. وإسناد الأخذ لها مجاز عقلي، ويكفي في الملابس مجاورتها له حين الفعل. وإنما أسنده إليها للمبالغة، وتخيل أنها تعرف الممدوح وفضله، فهي المسامرة إليه بنفسها. وروي يجوزها. وجبال بالجيم، فمعنى أخذت: قطعت من أرض القبيلة الأخرى بالسير إليك جبالاً غير تلك. وعلى كل، ففيه دليل على صعوبة الطريق. ينظر البيت في ديوانه (٦٥)، وتأويل مشكل القرآن ٤٦٥، ومجاز القرآن ١/١٠١، واللسان (حبل)، ومجمل اللغة ١/٢٦٢، وزاد المسير ١/٤٣٣، وتاج العروس ٧/٢٧٠، وتهذيب اللغة ٥/٧٨، والدر المصون ٢/١٧٧.

..... كَمَا جَوَّزَ السُّكِّيُّ فِي الْبَابِ فَيْتَقُ^(١)

﴿فَأَلْبَسَهُمْ﴾: فلحقهم، يقال: تبعته حتى أتبعته، وقرأ الحسن: «وعدوا»^(٢)، وقرئ: أنه بالفتح على حذف الياء التي هي صلة الإيمان؛ وإنه بالكسر على الاستئناف بدلاً من آمنت، كرر المخذول المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول، ثم لم يقبل منه؛ حيث أخطأ وقته، وقاله حين لم يبق له اختيار قط، وكانت المزة الواحدة كافية في حال الاختيار وعند بقاء التكليف.

﴿إِنَّمَا أَتَى النَّبِيَّ وَالنَّبَاتِ فِي إِحْسَابِهِمْ أَجْرٌ يُسَاءَلُونَ﴾^(٣)
﴿إِنَّمَا أَتَى النَّبِيَّ وَالنَّبَاتِ فِي إِحْسَابِهِمْ أَجْرٌ يُسَاءَلُونَ﴾^(٤)

﴿إِنَّمَا أَتَى النَّبِيَّ وَالنَّبَاتِ فِي إِحْسَابِهِمْ أَجْرٌ يُسَاءَلُونَ﴾: أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق^(٣)، وأيست من نفسك، قيل: قال ذلك حين ألجمه الغرق يعني حين أوشك أن يغرق، وقيل: قاله بعد أن غرق في نفسه، والذي يحكى أنه حين قال: (آمنت)، أخذ جبريل من حال البحر^(٤)، فدمسه في فيه (٧٥٦)، فللغضب لله على الكافر في وقت قد علم أن إيمانه / ٣٢٢٢ لا

٧٥٦ - أخرجه الترمذي (٢٨٧/٥): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة يونس، حديث (٣١٠٨)،
والنسائي في التفسير (٥٧٨/١)، وأحمد في مسنده (٢٤٠/١ - ٣٤٠) والحاكم في مستدركه (١) =

(١) ولا بد من جاز يجيز سبيلها كما جوز السكي في الباب فیتق للأعشى يصف مفازة الغزل فيها الملحوق عن بني عكاظ كما يأتي قريباً. يقول: ولا بد لمريد قطعها من جاز: أي قريب منها يعين المسافر على سلوك سبيلها. وجاهزه بجوزه: سلكه. وأجاهزه بجيزه: أسلكه. وكذا جوزه بجوزه بالتشديد فيهما. والسكي: المسمار، نسبة للسك، وهو تضييب الباب وتسميره. والفتيق: النجار؛ لأنه يفتق الخشب بالمسمار. ويروى: كما سلك السكي، أي: لا يعد من معين، ينقذه فيها كما أنفذ النجار المسمار في الباب. وعبر بالماضي ليدل على أن المشبه به معهود للسامع.

ينظر البيت في ديوانه ص ٢٧٣، ولسان العرب (فتق)، (سكك)، وتهذيب اللغة ٦٣/٩، ٤٣١، وكتاب الجيم ٦٦/٣، ومقاييس اللغة ٤٧١/٤، وكتاب العين ٥/٢٧٢، وتاج العروس (فتق)، (سكك)، وبلا نسبة في المخصص ١٣٢/٥، ٢٥/١٠، ٢٦١/١٢.

(٢) قوله: «وقرأ الحسن وعدوا» في الصحاح: عدا عدواً وعدواً وعداء اهد. وقد مر في قوله تعالى ﴿فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا﴾ (ع).

(٣) قال محمود: «معناه أتؤمن الساعة في وقت اضطرارك حين أدركك الغرق... إلخ» قال أحمد: ولقد أنكر منكراً، وغضب لله ولملائكته كما يجب لهم، والله الموفق.

(٤) قوله: «من حال البحر قدسه» أي طينه الأسود. أفاده الصحاح. وفي الحديث «قال جبريل يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه» كذا في الخازن (ع).

ينفعه، وأما ما يضم إليه من قولهم: خشية أن تدركه رحمة الله فمن زيادات الباهتين^(١) لله

== (٥٧)، (٣٤٠/٢)، (٢٤٩/٤) وصححه، وابن جبان في صحيحه (رقم ١٧٤٥ - موارد)، والطيالسي في منحة المعبود (٨٤/٢) رقم (٢٣٠٧)، والطبري في تفسيره (٦٠٥/٦) رقم (١٧٨٧٢ - ١٧٨٧٣ - ١٧٨٧٦)، وإسحاق بن راهويه والبخاري في مسنديهما؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٣٨/٢).

كلهم من طرق عن شعبة عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

قال الترمذي (٢٨٧/٥): هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقال الحاكم (٢/٣٤٠): هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٥٦٨/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس به. وله طريق آخر عن ابن عباس:

أخرجه الترمذي (٢٨٧/٥): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة يونس، حديث (٣١٠٧)، وأحمد (٢٤٥/١ - ٣٠٩)، والطبراني في الكبير (٢١٦/١٢) رقم (١٢٩٣٢)، وعبد بن حميد ص (٢٢٢) رقم (٦٦٤ - منتخب)، والطبري في تفسيره (٦٠٥/٦) رقم (١٧٨٧٥)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٠٢/٨) رقم (٤٢٠٨) كلهم من طرق عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس به.

قال الترمذي: هذا حديث حسن. وذكر السيوطي في «الدر المنثور»: (٥٦٨/٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس به.

وأخرجه الطبري أيضاً في تفسيره عن ابن عباس موقوفاً: فأخرجه الطبري (٦٠٦/٦) رقم (١٧٨٧٩، ١٧٨٨١)، من طرق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً.

وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (٤٥/٧) رقم (٩٣٩٣)، والطبري في تفسيره (٦٠٥/٦) رقم (١٧٨٧٤)، والسهمي في: «تاريخ جرجان» ص (١٠٦) رقم (٣٠٦)، وابن مردويه وابن أبي حاتم في تفاسيرهم؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٣٩/٢):

كلهم من طريق حكام بن سلم عن عنبسة عن كثير بن زاذان عن أبي حازم عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه.

وله شاهد أيضاً من حديث ابن عمر: أخرجه ابن مردويه في تفسيره؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٣٩/٢) من طريق نصر بن محمد بن سليمان بن أبي ضمرة السلمعي عن أبيه عن عبد الله بن أبي قيس عن ابن عمر مرفوعاً نحو حديث أبي هريرة.

(١) قوله: «الباهتين لله» في الصحاح «بهته» إذا قال عليه ما لم يفعله (ع).

وملائكته، وفيه جهالتان: إحداهما: أن الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس، فحال البحر لا يمنعه، والأخرى: أن من كره إيمان الكافر وأحب بقاءه على الكفر، فهو كافر؛

= وذكره المتقى الهندي في: «كنز العمال» (٢٥/٢) رقم (٢٩٩٦)، وزاد نسبه لابن عساكر عن ابن عمر به.

وله شاهد أيضاً من حديث أبي أمامة:

ذكره السيوطي في: «الدر المنثور» (٥٦٩/٣)، وعزاه إلى أبي الشيخ عن أبي أمامة - رضي الله عنه - به.

قال الحافظ:

قوله «والذي يحكي»... إلى قوله: «لأن الرضا بالكفر كفر»، هذا إفراط منه في الجهل بالمنقول والغض من أهله. فإن الحديث صحيح الزيادات، وقد أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي وابن جبان والحاكم وإسحاق والبخاري وأبو داود والطيالسي؛ كلهم من رواية شعبة عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رفعه أحدهما إلى النبي ﷺ قال: «إن جبريل كان يدرس في فم فرعون الطين مخافة أن يقول: لا إله إلا الله فيرحمه الله» لفظ الترمذي والباقيين. نحوه، وله طريق أخرى أخرجهما أحمد وإسحاق وعبد بن حميد والبخاري والطبراني من رواية حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس، بلفظ: «لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، قال جبريل: يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ الطين من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة، وله طريق أخرى أخرجهما يحيى بن عبد الحميد الحماني في مسنده عن أبي خالد الأحمر عن عمرو بن يعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال جبريل - عليه السلام - للنبي ﷺ: وذكر فرعون «فلقد رأيتني وأنا لأكبر فمه بالحماة مخافة أن تدركه الرحمة، وفي الباب عن أبي هريرة أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب في السادس والخمسين، وابن مردويه من طريق عتبة بن سعيد عن كثير بن زاذان عن أبي حازم عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: قال لي جبريل: «لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في في فرعون؛ مخافة أن يقول ربي الله، فتدركه رحمة الله»، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - سمعت رسول الله ﷺ يقول قال لي جبريل: يا محمد ما غضب ربك على أحد غضبه على فرعون إذ قال: ما علمت لكم من إله غيري. وإذ نادى فقال: أنا ربكم الأعلى. فلما أدركه الغرق استغاث وأقبلت أحشوا فاه؛ مخافة أن تدركه الرحمة» أخرجه الطبراني وابن مردويه من رواية محمد بن سليمان بن أبي ضمرة عن عبد الله بن أبي قيس عنه.

قلت: وأما الوجهان اللذان ذكرهما الزمخشري، فللحديث توجيه وجيه، لا يلزم منه ما ذكره الزمخشري؛ وذلك أن فرعون كان كافراً كافر عناد؛ ألا ترى إلى قصته حيث توقف النيل، وكيف توجه منفرداً وأظهر أنه مخلص، فأجرى له النيل، ثم تمادى على طغيانه وكفره، فخشى جبريل أن يعاود تلك العادة فيظهر الإخلاص بلسانه، فتدركه رحمة الله فيؤخره في الدنيا، فيستمر على غبه وطغيانه؛ فدرس في فمه الطين؛ ليمتنعه التكلم بما يقتضي ذلك، هذا وجه الحديث. ولا يلزم منه جهل ولا رضا بكفر، بل الجهل كل الجهل ممن اعترض على المنقول الصحيح برأيه الفاسد، وأيضاً فإيمانه في تلك الحالة على تقدير أنه كان صدقاً بقلبه لا يقبل؛ لأنه وقع في حال الاضطراب؛ ولذلك عقب في الآية بقوله تعالى: ﴿الآن وقد عصيت قبل﴾، وفيه إشارة في قوله تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾. انتهى.

لأن الرضا بالكفر كفر ﴿مِنَ الْمُتَّبِعِينَ﴾: من الضالين المضلين عن الإيمان؛ كقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زُجُجَتْ لَهُمْ جَذَابَاتُ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (١٨٨) [النحل: ١٨٨]، وروي أنّ جبريل - عليه السلام - أتاه بفتيا: ما قول الأمير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته، فكفر نعمته، وجحد حقه، وادّعى السيادة دونه؟ فكتب فرعون فيه: يقول أبو العباس الوليد بن مصعب: جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماء أن يغرق في البحر، فلما ألجمه الغرق، ناوله جبريل خطه فعرفه (٧٥٧)، ﴿تَنجِيكَ﴾: بالتشديد والتخفيف: نبعدك مما وقع فيه قومك من قعر البحر، وقيل: نلّقيك بنجوة من الأرض، وقرئ: «ننحيك»، بالحاء: نلّقيك بناحية مما يلي البحر؛ وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب البحر، قال كعب: رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور، ﴿يَبْدِيكَ﴾: في موضع الحال، أي: في الحال التي لا روح فيك، وإنما أنت بدن، أو ببدنك كاملاً سوياً لم ينقص منه شيء ولم يتغير، أو عرباناً لست إلا بدنأ من غير لباس، أو بدرعك؛ قال عمرو بن معد يكرب [من الوافر]:

أَعَاذِلُ شِكَّتِي بَدَنِي وَسَيْفِي وَكُلُّ مُقْلَصٍ سَلِسِ الْقِيَادِ^(١)

وكانت له درع من ذهب يعرف بها، وقرأ أبو حنيفة - رحمه الله - : «بأبدانك» وهو على وجهين: إما أن يكون مثل قولهم: هوى بأجرامه، يعني: ببدنك كله وافيةً بأجزائه، أو يريد: بدرعك كأنه كان مظاهراً بينها، ﴿لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾: لمن وراءك من الناس علامة، وهم بنو إسرائيل، وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأناً من أن يغرق، وروي أنهم قالوا: ما مات فرعون، ولا يموت أبداً. وقيل: أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدّقوه، فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه، وكان مطرحة كان على ممرّ من بني إسرائيل حتى قيل: لمن خلفك، وقيل: (لمن خلفك): لمن يأتي بعدك من القرون، ومعنى كونه آية: أن تظهر للناس عبوديته ومهاتته، وأن ما كان يدّعيه من الربوبية باطل محال، وأنه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ما ترون لعصيانه ربه - عزّ وجلّ - فما الظنّ بغيره، أو لتكون عبرة تعتبر بها الأمم بعدك، فلا يجترثوا على نحو ما اجترأت عليه إذا سمعوا

٧٥٧ - ذكره القرطبي في تفسيره (٢٤١/٨ - ٢٤٢).

(١) لعمرو بن معد يكرب، وكانت له درع من ذهب تعرفه بها العرب. يقول: يا عاذلة، إن سلاحي درعي وسيفي وفرسي المكتنز اللحم المديح الخلق. وقيل: المقلص الطويل القوائم الهين القود. ويروى: سهل القيادة. والمعنى واحد. وإطلاق البدن على الدرع في الأصل مجاز علاقته المجاورة أو المحلية، وأتى بأداة العموم في الفرس لأنه الذي يكثر تغييره. ينظر: ديوانه (٦٠)، والبحر المحيط (١٨٩/٥).

بحالك وبهوانك على الله، وقرئ: «لمن خلقك»، بالقاف، أي: لتكون لخالقك آية كسائر آياته، ويجوز أن يراد: ليكون طرحك على الساحل وحدك وتمييزك من بين المغرقين - لثلا يشتبه على الناس أمرك، ولثلا يقولوا - لادعائك/ ٣٢٢٣ العظمة إن مثله لا يفرق ولا يموت - آية من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وليعلموا أن ذلك تعمد منه لإماطة الشبهة في أمرك.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿مُبَوَّأً صِدْقٍ﴾: منزلاً صالحاً مرضياً وهو مصر والشام، ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾: في دينهم وما تشعبوا فيه شعباً إلا من بعد ما قرؤوا التوراة، وكسبوا العلم بدين الحق ولزمهم الثبات عليه واتحاد الكلمة، وعلموا أن الاختلاف فيه تفرق عنه، وقيل: هو العلم بمحمد ﷺ واختلاف بني إسرائيل، وهم أهل الكتاب، اختلافهم في صفته وبعته، وأنه هو أم ليس به، بعد ما جاءهم العلم والبيان أنه هو لم يرتابوا فيه، كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَرُ يَفْقَهُونَهُ كَمَا يَفْقَهُونَ أَنَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٠].

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِّ إِلَيْهِمُ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾

فإن قلت: كيف قال لرسول الله ﷺ ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾: مع قوله في الكفرة: ﴿وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠].

قلت: فرق عظيم بين قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ بإثبات الشك لهم على سبيل التأكيد والتحقيق، وبين قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ بمعنى: الفرض والتمثيل، كأنه قيل: فإن وقع لك شك مثلاً، وخيل لك الشيطان خيلاً منه تقديراً، ﴿فَسَلِّ إِلَيْهِمُ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ﴾، والمعنى: أن الله - عز وجل - قدم ذكر بني إسرائيل وهم قراءة الكتاب،

(١) قال محمود: «إن قلت كيف قال له عليه السلام: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ مع قوله في الكفرة ﴿وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾... إلخ؟ قال أحمد: ولو قال هذا المفسر: إن نفي الشك عنه عليه الصلاة والسلام توطئة لأمره بالسؤال لتقوم حجته على المسؤولين لا ليستفيد بسؤالهم علماً لمزيد تعين الإبراء بقوله له ﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله﴾ فأمر بالسؤال والجواب جميعاً - لكان أقوم وأسلم، والله أعلم.

ووصفهم بأن العلم قد جاءهم؛ لأن أمر رسول الله ﷺ مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وصحة نبوة محمد - عليه السلام - ويبالغ في ذلك، فقال: فإن وقع لك شك فرضاً وتقديراً - وسبيل من خالجه شبهة في الدين أن يسارع إلى حلها وإماطتها، إما بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلتها، وإما بمقادحة العلماء المنبهين على الحق، فسل علماء أهل الكتاب، يعني: أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك وقتلها علماً بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ومساءلتهم فضلاً عن غيرك، فالغرض وصف الأخبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله، لا وصف رسول الله بالشك فيه، ثم قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: ثبت عندك بالآيات، والبراهين القاطعة، أن ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للمرية، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: فائتب ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله، ويجوز أن يكون على طريقة التهييج والإلهاب؛ كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٨٦ - ٨٧]، ولزيادة التثبيت والعصمة؛ ولذلك قال عليه السلام عند نزوله: «لَا أَشُكُّ وَلَا أَسْأَلُ بَلْ أَشْهَدُ أَنَّهُ الْحَقُّ» (٧٥٨) وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: لا والله، ما شك طرفة عين، ولا سأل أحداً منهم، وقيل: خطب رسول الله ﷺ والمراد خطاب أمته/ ٣٢٣ب، ومعناه: فإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم؛ كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقيل: الخطاب للسامع ممن يجوز عليه الشك؛ كقول العرب: إذا عز أخوك فهن، وقيل: «إن» للنفي، أي: فما كنت في شك فاسأل، يعني: لا تأمرك بالسؤال؛ لأنك شاك، ولكن لتزداد يقيناً، كما ازداد إبراهيم - عليه السلام - بمعاينة إحياء الموتى، وقرئ: «فاسأل الذين يقرؤون الكتب».

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۗ﴾

﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح، وأخبر به

٧٥٨ - أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/٢٩٧ - ٢٩٨)، والطبري في تفسيره (٦/٦١٠) رقم (١٧٩٠٧) - (١٧٩٠٨) كلاهما عن معمر عن قتادة به.

وذكره السيوطي في: «الدر المنثور» (٣/٥٧١).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه عبد الرزاق، ومن طريق الطبري عن معمر عن قتادة في هذه الآية، قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل» انتهى.

الملائكة أنهم يموتون كفاراً فلا يكون غيره، وتلك كتابة معلوم لا كتابة مقدر ومراد^(١)، تعالى الله عن ذلك.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَعْدَابَ الْآخِرِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُنَزِّلُ الْإِنجِيلَ فِي الْبَنَاتِ ۖ وَتُؤْتِينَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِنَّ ذَكْوًا مِمَّا رَزَقْنَاهُنَّ وَأَنْجَلْنَاهُنَّ مِنْ الْعَذَابِ ۗ﴾

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ﴾: فهلا كانت، ﴿قَرْيَةٌ﴾: واحدة من القرى التي أهلكتها، ثابت عن الكفر، وأخلصت الإيمان قبل المعاينة وقت بقاء التكليف، ولم تؤخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بمخنقه، ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾: بأن يقبله الله منها لوقوعه في وقت الاختيار، وقرأ أبي، وعبد الله: «فهلا كانت»، ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ﴾: استثناء من القرى؛ لأن المراد أهاليها، وهو استثناء منقطع، بمعنى: ولكن قوم يونس لما آمنوا، ويجوز أن يكون متصلاً، والجملة في معنى النفي؛ كأنه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس، وانتصابه على أصل الاستثناء، وقرئ بالرفع على البدل؛ هكذا روي عن الجرمي والكسائي، روي أن يونس - عليه السلام - بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه، فذهب عنهم مغاضباً، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب، فلبسوا المسوح، وعجوا^(٢) أربعين ليلة، وقيل: قال لهم يونس: «إن أجلكم أربعون ليلة»، فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك، أمنا بك، فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخل دخاناً شديداً، ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم، ويسود سطوحهم، فلبسوا المسوح، وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم، وصبيانهم، ودوابهم، وفرقوا بين النساء والصبيان، وبين الدواب وأولادها، فحن بعضها على بعض، وعلت الأصوات والعجيج، وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة، وعن ابن مسعود: بلغ من توبتهم أن تراءوا المظالم، حتى إن الرجل كان يقتلع الحجر، وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده، وقيل: خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم: قولوا: «يا حيّ حين لا حيّ، ويا حيّ محي الموتى، ويا حيّ لا إله إلا أنت» فقالوها، فكشف عنهم، وعن الفضيل بن عياض: قالوا: «اللهم، إن ذنوبنا قد عظمت وجلت، وأنت أعظم منها وأجل، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله».

(١) قوله: «لا كتابة مقدر ومراد» مبني على مذهب المعتزلة أن الله لا يريد الشر. وذهب أهل السنة إلى أنه تعالى يريد كل كائن خيراً كان أو شراً (ع).

(٢) قوله: «عجوا» أي رفعوا أصواتهم. أفاده الصحاح (ع).

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴿

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ ﴾ : مشيئة القسر^(١) والإلجاء^(٢)، ﴿ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ ﴾ : على وجه الإحاطة والشمول، ﴿ جَمِيعًا ﴾ : مجتمعين على الإيمان / ١٣٢٤ مطبقين عليه لا يختلفون فيه؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ ﴾ يعني: إنما يقدر على إكراههم واضضرارهم إلى الإيمان هو لا أنت؛ وإيلاء الاسم حرف الاستفهام؛ للإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور عليه؛ وإنما الشأن في المكروه من هو؟ وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه؛ لأنه هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان؛ وذلك غير مستطاع للبشر.

﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴿

﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ ﴾ يعني: من النفوس التي علم أنها تؤمن، ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي: بتسهيله، وهو منح الألفاظ، ﴿ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ : قابل الإذن بالرجس، وهو الخذلان^(٣)، والنفس المعلوم إيمانها بالذين لا يعقلون، وهم المصرون على الكفر، كقوله: ﴿ صُمُّ بَيْنَكُمْ عُنَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١]، وسمي الخذلان: «رجساً» وهو العذاب؛ لأنه سببه، وقرئ: «الرجز»، بالزاي، وقرئ: «ونجعل»، بالنون.

(١) قوله: «مشيئة القسر» هذا مذهب المعتزلة، وذلك أنهم أوجبوا على الله الصلاح والأصلح، وإيمان الكل أصلح، لكن الآية تخالف مذهبهم فقالوا: إنه تعالى أراد إيمان الكل إرادة تخيير للعباد، فلم يلزم وقوع المراد، ولو أراده إرادة إجبار لوقع، وأهل السنة لم يوجبوا على الله شيئاً، ولزوم وقوع المراد لا يتنافى تخيير العباد، لما لهم من الكسب في أفعالهم الاختيارية وإن كان فاعلها في الحقيقة هو الله، كما تقرر في التوحيد.

(٢) قال محمود: «المراد مشيئة القسر والإلجاء» قال أحمد: وهذا من دسه الاعتزال مخلصاً، وخلط الباطل بالحق مدلساً. ولما علم أن الآية تقتضي عدم مشيئة الله تعالى لإيمان الخلق بصيغة الكلية، وأنه إنما شاء ذلك ممن آمن لا ممن كفر - إذ مقتضى «الولا» امتناع، وكان ذلك راد لمعتقده الفاسد، إذ يزعمون أن الله تعالى شاء الإيمان من جميع أهل الأرض، فلم يؤمن إلا بعضهم - أخذ يحرف مشيئة الإيمان إلى مشيئة القسر والإلجاء، ليتم له أن المشيئة المرادة في الآية لم تقع؛ إلا أنا نوافق على أن الله تعالى ما قسر الخلق ولا سلب اختيارهم، بل أمرهم بالإيمان وخلق لهم اختياراً له وقصداً، وهذا كما ترى لا يعد في التأويل. بل هو أجدر بالتعطيل، فوجب رده وإقرار الظاهر على حاله، نعوذ بالله من زيغ الشيطان وإضلاله، والله الموفق.

(٣) قوله: «وهو الخذلان» تأويل الرجس بالخذلان على مذهب المعتزلة، وعلى مذهب أهل السنة لا حاجة إلى تأويله (ع).

﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١١١)

﴿ مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾: من الآيات والعبر، ﴿ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ ﴾: والرسائل المنذرون، أو الإنذارات، ﴿ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾: لا يتوقع إيمانهم، وهم الذين لا يعقلون، وقرئ: «وما يعني»، بالياء، و«ما»: نافية، أو استفهامية.

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ (١١٢) ثُمَّ نَجَّيْ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾

﴿ آبَائِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾: وقائع الله - تعالى - فيهم، كما يقال: «أيام العرب»: لوقائعها، ﴿ ثُمَّ نَجَّيْ رُسُلَنَا ﴾: معطوف على كلام محذوف يدل عليه قوله: ﴿ إِلَّا مِثْلَ آبَائِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ كأنه قيل: نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا، على حكاية الأحوال الماضية، ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾: ومن آمن معهم، كذلك ﴿ نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾: مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم، ونهلك المشركين. و﴿ حَقًّا عَلَيْنَا ﴾: اعتراض، يعني: حق ذلك علينا حقًا، وقرئ: «ننج»، بالتشديد.

﴿ قُلْ يَتَّبِعُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا آعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ آعْبُدْ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٤)

﴿ يَتَّبِعُهَا النَّاسُ ﴾: يا أهل مكة، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي ﴾: وصحته وسداده، فهذا ديني فاسمعوا وصفه، واعرضوه على عقولكم، وانظروا فيه بعين الإنصاف، لتعلموا أنه دين لا مدخل فيه للشك، وهو أني لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون من هو إلهكم وخالقكم، ﴿ وَلَكِنْ آعْبُدْ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ ﴾: وإنما وصفه بالتوفي، ليريهم أنه الحقيق بأن يخاف ويتقى، فيعبد دون ما لا يقدر على شيء، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني: أن الله أمرني بذلك، بما ركب في من العقل، وبما أوحى إلي في كتابه، وقيل: معناه: إن كنتم في شك من ديني ومما أنا عليه - أثبت عليه أم أتركه وأوافقكم - فلا تحدثوا أنفسكم بالمحال ولا تشكوا في أمري، واقطعوا غنى أطماعكم، واعلموا أني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولا أختار الضلالة على الهدى؛ كقوله: ﴿ قُلْ يَتَّبِعُهَا الْكَافِرُونَ ﴾ (١) لَا آعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ [الكافرون: ١ - ٢]، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ ﴾ أصله: بأن أكون، فحذف الجار، وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذي هو حذف الحروف: الجارة مع: «إن»، و«أن»، وأن يكون من الحذف غير المطرد، وهو قوله: أمرتك الخير فاصدع/ ٣٢٤ب بما تؤمر.

﴿وَأَنْ أَوْفَىٰ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١١٥)

فإن قلت: عطف قوله: ﴿وَأَنْ أَوْفَىٰ﴾ على: (أن أكون): فيه إشكال؛ لأن «أن»: لا تخلو من أن تكون التي للعبارة، أو التي تكون مع الفعل في تأويل المصدر، فلا يصح أن تكون للعبارة، وإن كان الأمر مما يتضمن معنى القول؛ لأن عطفها على الموصولة يأبى ذلك، والقول بكونها موصولة مثل الأولى، لا يساعد عليه لفظ الأمر، وهو: (أقم)، لأن الصلة حقها أن تكون جملة تحتل الصدق والكذب.

قلت: قد سوغ سبويه أن توصل: «أن» بالأمر والنهي، وشبه ذلك بقولهم: أنت الذي تفعل، على الخطاب؛ لأن الغرض وصلها بما تكون معه في معنى المصدر، والأمر والنهي دالان على المصدر دلالة غيرهما من الأفعال، (أقم وجهك): استقم إليه، ولا تلتفت يمينا ولا شمالا، و﴿حَنِيفًا﴾: حال من الدين، أو من الوجه.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١١٦)

﴿إِنْ فَعَلْتَ﴾ معناه: فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضررك، فكفى عنه بالفعل إيجازاً، ﴿فَأِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إذا: جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر، كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان، وجعل من الظالمين؛ لأنه لا ظلم أعظم من الشرك، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنتِ يُدْرِكُ بِمِغْرِبِ رَأْدٍ لِفَضْلِهِ﴾

يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٧)

أتبع النهي عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر، أن الله - عز وجل - هو الضار النافع، الذي إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد، فكيف بالجماد الذي لا شعور به وكذلك إن أردك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه، فكيف بالأوثان؟ فهو الحقيقي إذا بأن توجه إليه العبادة دونها، وهو أبلغ من قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِي﴾ [الزمر: ٢٣٨].

فإن قلت: لم ذكر المس في أحدهما، والإرادة في الثاني؟

قلت: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً: الإرادة، والإصابة في كل واحد من الضر والخير، وأنه لا راد لما يريده منهما، ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن ذكر المس وهو الإصابة في أحدهما، والإرادة في الآخر؛ ليدل بما ذكر على ما ترك، على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ والمراد

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿١٠٨﴾

﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ﴾: فلم يبق لكم عذر ولا على الله حجة، فمن اختار الهدى واتباع الحق فما نفع باختياره إلا نفسه، ومن أثار الضلال فما ضر إلا نفسه، واللام وعلى: دلا على معنى النفع والضرر، وكل إليهم الأمر بعد إبانة الحق وإزاحة العلل، وفيه حث على إيثار الهدى وإطراح الضلال مع ذلك، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾: بحفيظ موكول إلي أمركم وحملكم على ما أريد؛ إنما أنا بشير ونذير.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَ اللَّهُ أَجْرَهُمْ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿١٠٩﴾

﴿وَأَصْبِرْ﴾: على دعوتهم، واحتمال أذاهم، وإعراضهم، ﴿حَتَّىٰ يَخُذَ اللَّهُ أَجْرَهُمْ﴾ / ١٣٢٥: لك بالنصرة عليهم والغلبة، وروي أنها لما نزلت جمع رسول الله ﷺ الأنصار، فقال: «إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ بَعْدِي أَثْرَةً، فَأَصْبِرُوا حَتَّىٰ تَلْفُونِي» (٧٥٩) يعني: أني أمرت في هذه الآية

٧٥٩ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٤٠/٢): غريب بهذا اللفظ، وهو في تفسير الثعلبي، عن أنس بغير سند، أ.هـ. وفي الصحيحين عن عبد الله بن زيد بن عاصم: أخرجه البخاري (٣٦٩/٨): كتاب المغازي: باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، حديث (٤٣٣٠) وطرفه في (٧٢٤٥)، ومسلم (١٦٦/٤ - ١٦٧ - النووي): كتاب الزكاة: باب إعطاء المؤلف قلوبهم على الإسلام، حديث (١٣٩ / ١٠٦١) كلاهما من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة عن عباد بن تميم عن عبد الله بن زيد بن عاصم به وله شاهد أيضاً من حديث أسيد بن حضير: أخرجه البخاري (٤٩٤/١٤): كتاب الفتن: باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أموراً تنكرونها»، حديث (٧٠٥٧)، ومسلم (٤٧٦/٦ - النووي): كتاب الإمارة: باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة واستنثارهم، حديث (١٨٤٥/٤٨)، والترمذي (٤٨٢/٤): كتاب الفتن: باب في الأثرة وما جاء فيه، حديث (٢١٨٩)، والنسائي (٢٢٤/٨): كتاب آداب القضاة، باب ترك استعمال من يحرص على القضاء؛ كلهم من طريق قتادة عن أنس بن مالك عن أسيد بن حضير به. قال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح.

قال ابن حجر تعليقا على حديث أسيد بن حضير: ومن حديث أسيد بن حضير ليس فيه كون الآية سبب ذلك، بل سببه قسمة غنائم حنين أ.هـ. وله طريق آخر عن أسيد بن حضير: أخرجه الحاكم في المستدرک (٧٩/٤) من طريق يحيى بن سعيد عن أنس بن مالك عن أسيد بن حضير به.

وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قال الحافظ: ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند. والقصة المذكورة متفق عليها من حديث عبد الله بن زيد في أثناء حديث، ومن حديث أسيد بن حضير، ليس فيه كون الآية سبب ذلك، بل سببه قسمة =

بالصبر على ما سامتني الكفرة، فصبرت، فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة، قال أنس: فلم نصبر، وروي أن أبا قتادة تخلف عن تلقي معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الأنصار، ثم دخل عليه من بعد، فقال له: مالك لم تتلقنا؟ قال: لم تكن عندنا دواب، قال: فأين النواضح؟ قال: قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر، وقد قال ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثْرَةً» ح، قال معاوية: فماذا قال؟ قال: «فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي» ح، قال: فاصبر؛ قال: إذن نصبر. (٧٦٠) فقال عبد الرحمن بن حسان [من الوافر]:

أَلَا أُبْلِغُ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَزْبٍ أَمِيرَ الظَّالِمِينَ نَشَا كَلَامِي
بِأَنَّ صَابِرُونَ فَمُنْظَرُونَكُمْ إِلَى يَوْمِ الثَّعَابِنِ وَالْخِصَامِ^(١)
عن رسول الله - ﷺ -: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعْدَ مَنْ
صَدَّقَ يُّوسُفَ وَكَذَّبَ بِهِ، وَبَعْدَ مَنْ غَرَّقَ مَعَ فِرْعَوْنَ» (٧٦١).

= غنائم حنين. انتهى.

٧٦٠ - أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (٥٦/٦ - ٥٧) رقم (٧٤٨٨) من طريق عبد الرزاق عن معمر عن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب؛ أن معاوية لما قدم المدينة... الحديث.
وأخرجه إسحاق بن راهويه والحاكم في مستدركه؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٤١/٢).
قال الحافظ: أخرجه إسحاق بن راهويه. ومن طريقه الحاكم والبيهقي عن عبد الرزاق عن معمر عن ابن عقيل؛ أن معاوية لما قدم المدينة لقيه أبو قتادة الأنصاري: فقال معاوية: تلقانا الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار، فما يمنعكم أن تلقوني؟ قال: لم تكن لنا دواب، فقال معاوية: فأين النواضح. قال أبو قتادة: عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر. ثم قال أبو قتادة: إن رسول الله ﷺ قال: أما إنكم سترون بعدي أثره. قال معاوية: فما أمركم؟ قال: أمرنا أن نصبر حتى نلقاه.
قال: فاصبروا حتى تلقوه. فقال عبد الرحمن بن حسان حين بلغه ذلك - فذكر البيتين. وقال: يا أمير المؤمنين. انتهى.

٧٦١ - تقدم وينظر حديث (٣٤٦).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: تقدم إسناده في آل عمران. ويأتي في آخر القرآن. انتهى.

(١) لعبد الرحمن بن حسان، حين دخل معاوية بن أبي سفيان بن حرب المدينة، فتلقته الأنصار وتخلف أبو قتادة، ثم دخل عليه فقال له: مالك تخلفت؟ فقال: لم يكن عندنا دواب. قال: فأين النواضح؟ قال: قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر، وقد قال ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثْرَةً». قال معاوية، فماذا قال؟ قال: فاصبروا حتى تلقوني. قال: فاصبروا. قال: إذا نصبر. والثناء يقال للخير، وقد يقال للشر. والثناء: خاص بالشر. وروي «نشا كلامي» ومنظروكم: مهملوكم. أي أنت وقومك. والثعابين: ظهور الغبن للعمال في تجارات الأعمال. والخصام: المحاصمة والمجادلة، أي إلى يوم القيامة.